المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ خطورة التعامل بالربا:

يقول أ/ شقرة: «ولعل سؤالًا يثور في الذهن: ما الحكمة من الحديث عن الربا في خلال هذه الآيات التي تُفصل لنا أحداث غزوة أُحد؟! وهو سؤال حري بالنظر لنعرف الحكمة من ذلك.

إن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى المال الذي به تظل راية الجهاد مرتفعة تخفق فوق رؤوس المجاهدين، وكما يجب أن تكون نفوس المجاهدين نقية من الشوائب التي تُبطل الجهاد، يجب أن يكون المال المبذول للجهاد أيضًا نقيًّا من الشوائب، وأوخمُ شائبة تذهب بنقاء جوهر المال هي الربا، فإذا نزل الربا بساحة المال زال رونقه ومُحيت بركته، فلا ينفع الجهاد صفاءُ نفوس المجاهدين حينئذ وحده، وحينئذ إما أن تقف عجلة الجهاد عن الاندفاع، وإما أن تعود إلى الوراء؛ لذا ناسب أن يذكر اللهُ حُكم الربا، فلا يظل للقلوب متعلق أبدًا بما قد يرد إليهم من ربا المال، ثم إن في ذكر حكم الربا تحريضًا للمجاهدين أن يعقِروا الربا حيثما لقوه؛ لئلا يكون له سلطان.

فمطلوب منهم حينئذ أن يُحكموا الضربة للإطاحة بمراكز القوى الاقتصادية التي ترقص نشوى بالمكاسب السُّحت؛ لتدفع بها إلى قوى البغي المنطلقة لمداهمة الأمن المراد له أن يدخل كل بيت على وجه الأرض؛ لتقويها وتمدها بأسباب الصمود والاستمرار، وما دام أن الحرب واقعة فلتضع في حسابها شيئًا آخر تستهدفه فتفعله لا يقل في خطره وأثره عن خطر الشرك، وهو الربا.

ونذكِّر هنا بما سلف من ذكر غزوة أُحد أثناء الحديث عن غزوة بدر حيث قلنا: ويمتزج الحديث في هذه الآيات (من ١٢١ وحتى ١٢٩) عن غزوة بدر وأُحد معًا، مقارنةً، وتذكيرًا، وتبصيرًا وحضًّا؛ فيولد من هذه جميعًا الاقتدار على الوقوف في وجه القوة المتمردة الباغية، بعد التوكل على الله سبحانه، فلا يكون الفشل الذي يدبر له أهل الباطل لإيقاع أهل الحق في حبائله، ووقع في بعضه المسلمون في أُحد». [السيرة العطرة لشقرة ٣٥٨-٣٦٠].

ويقول صاحب الظلال: «وقبل أن يدخل السياق في صميم الاستعراض للمعركة ـ معركة أحد ـ والتعقيبات على وقائعها وأحداثها، تجيء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى، التي ألمعنا في مقدمة الحديث إليها، المعركة في أعماق النفس وفي محيط الحياة، يجيء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية، وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله، وعن الإنفاق في السراء والضراء، والنظام التعاوني الكريم المقابل للنظام الربوي الملعون، وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى في الجماعة، وعن الاستغفار

من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾[آل عمران].

تجيء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية؛ لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة: الوحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله، ورده كله إلى محور واحد: **محور العبادة لله والعبودية له، والتوجه إليه بالأمر كله.**

والوحدة والشمول في منهج الله وهيمنته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها، وفي كل شأن من شؤونها، وفي كل جانب من جوانب نشاطها.

ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني، وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الإنسان كله، كلما أسلفنا.

والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفاريق، ومن ثم هذا الجَمْع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب، والسيطرة على الأهواء والشهوات، وإشاعة الود والسماحة في الجماعة، فكلها قريب من قريب، وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات، وكل توجيه من هذه التوجيهات، يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾.

ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوي بالتفصيل في الجزء الثالث من هذه الظلال [١/ ٣١٧ وما بعدها]، فلا نكرر الحديث عنه هنا، ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة، فإن قومًا يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص، ويتداروا به، ليقولوا: إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة، أما الأربعة في المائة والخمسة في المائة والسبعة والتسعة، فليست أضعافًا مضاعفة، وليست داخلة في نطاق التحريم!

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع، وليست شرطًا يتعلق به الحكم، والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا ـ بلا تحديد ولا تقييد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨] أيًّا كان!

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف، لنقول: إنه في الحقيقة ليس وصفًا تاريخيًّا فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة، والتي قصد إليها النهي هنا بالذات، إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت، أيًّا كان سعر الفائدة.

إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة، ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة، فهي عمليات متكررة من ناحية، ومركبة من ناحية أخرى، فهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافًا مضاعفة بلا جدال.

إن النظام الربوي يحقق بطبيعته دائمًا هذا الوصف، فليس هو مقصورًا على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب، إنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان.

ومن شأن هذا النظام أن يُفسد الحياة النفسية والخلقية ـ كما فصلنا ذلك في الجزء الثالث ـ كما أن من شأنه أن يُفسد الحياة الاقتصادية والسياسية ـ كما فصلنا ذلك أيضًا ـ ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها، وتأثيره في مصائرها جميعًا.

والإسلام ـ وهو ينشئ الأمة المسلمة ـ كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية، وأثر هذا وذاك في نتائج المعارك التي تخوضها الأمة معروف، فالنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهومًا في هذا المنهج الشامل البصير.

أما التعقيب على هذا النهي بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح، واتقاء النار التي أعدت للكافرين، أما التعقيب بهاتين اللمستين فمفهوم كذلك، وهو أنسب تعقيب:

إنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين، ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين، والإيمان ليس كلمة تُقال باللسان، إنما هو اتباع للمنهج الذي جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان، وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه في الحياة الواقعية، وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته.

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان، وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة، وهناك النار التي أُعدت للكافرين! والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة، والجَمْع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله، وإلى اتقاء النار التي أُعدت للكافرين، ليس عبثًا ولا مصادفة، إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين.

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وبتقوى الله، فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى؛ ولتحقيق منهج الله في حياة الناس، ولقد سبق الحديث في الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية، وويلاته البشعة في حياة الإنسانية، فلنرجع إلى هذا البيان هناك، لندرك معنى الفلاح هنا، واقترانه بترك النظام الربوي المقيت!

ثم يجيء التوكيد الأخير: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة، ولكن للتعقيب به على النهي عن الربا دلالة خاصة، هي أنه لا طاعة لله وللرسول في مجتمع يقوم على النظام الربوي، ولا طاعة لله وللرسول في قلب يأكل الربا في صورة من صوره، وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيدًا بعد توكيد.

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التي خولف فيها أمر رسول الله ﷺ وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول، بوصفها وسيلة الفلاح، وموضع الرجاء فيه.

ثم لقد سبق في سورة البقرة ـ في الجزء الثالث ـ أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا، والحديث عن الصدقة، بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي، وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم: النظام الربوي، والنظام التعاوني، فهنا كذلك نجد هذا الجَمْع في الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق في السراء والضراء».

[في ظلال القرآن ١/ ٤٧٢-٤٧٤].

٢ ـ «لا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا»:

يقول أ/ خلف الله: «وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا**»، كلمة لا يمكن أن تصدر إلا عن رسول الله ﷺ، فقد جمعت عدة معان سامية:

(أ) فالشرك دائمًا يكون في الدرك الأسفل، فلا ينبغي أن يعلو أهله على المؤمنين الصادقين حسًّا ومعنى.

(ب) وعلى المؤمنين أن يؤدوا واجبهم كاملًا؛ لأنهم لا يعرفون الهزيمة، فيجب أن يمنعوا المشركين من السير كما شاؤوا في الميدان حتى لا تعتقد أذهانهم القاصرة أن المسلمين ملُّوا القتال أو وهنوا.

(ج) ثم إن المشركين بصعودهم فوق الجبل يتمكنون من رؤية الميدان كله، ويكتشفون قلة مَنْ بقي من المسلمين، وحينئذ قد تثب إلى أذهانهم فكرة الإجهاز عليهم فيتجمعون فوق الجبل ويتجدد القتال».

[غزوة أُحد لخلف الله ٩٣].

٣ ـ الغيرة على الإسلام:

يقول ابن القيم: «فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبِشِرْكِهِ تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة مَنْ عبده المسلمون، وقوةِ جانبه، وأنه لا يُغلب، ونحن حزبُه وجُنده.

ولم يأمرهم ﷺ بإجابته حين قال: **أفيكم محمد؟ أفيكم ابنُ أبي قُحافة؟ أفيكم عمر؟** بل قد رُوي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «**لا تُجيبوه**»؛ لأن كَلمَهُمْ (أي: جرحهم) لم يكن بَرَدَ بَعْدُ في طلب القوم، ونارُ غيظهم بعد متوقِّدة، فلما قال لأصحابه: **أما هؤلاء فقد كُفيتموهم**، حميَ عمر بنُ الخطاب ﷺ، واشتد غضبُه وقال: **كذبْت يا عدوَّ الله**، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة، وعدمِ الجُبن، والتعرفِ إلى العدو في تلك الحال، ما يُوذِنُهم بقوة القوم وبَسالتهم، وأنهم لم يَهِنُوا ولم يَضْعُفُوا، وأنه وقومَه جديرون بعدم الخوفِ منهم، وقد أبقى اللهُ لهم ما يسوؤهُم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنِّهِ وظنِّ قومه أنهم قد أُصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحِزبِهِ، والفتِّ في عَضُدِهِ ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا، فكان سؤالُه عنهم، ونعيُهم لِقومه آخِر سهام العدو وكيده، فصبر له النبيُّ ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عُمَرُ ﷺ، فرد سِهَام كيدِهِ عليه، وكان تركُ الجوابِ أولًا عليه أحسن، وذكره ثانيًا أحسن، وأيضًا فإن في ترك إجابته حين سأل عنهم إهانةً له، وتصغيرًا لشأنه، فلما منَّته نفسُه موتَهم، وظنَّ أنهم قد قُتِلُوا، وحصل بذلك من الكِبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانةٌ له، وتحقيرٌ، وإذلالٌ، ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي ﷺ: «لا تُجِيبُوه»، فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّدٌ؟ أفيكم فلانٌ؟ أفيكم فلانٌ؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء، فقَد قُتِلُوا، وبكل حال، فلا أحسنَ من ترك إجابته أولًا، ولا أحسنَ من إجابته ثانيًا». [زاد المعاد ٣/ ١٨١].

٤ ـ تقدير أهل العلم:

يقول د/ الزيد: «لما قال أبو سفيان بعد المعركة: «أُعْلُ هُبَلُ، قال الرسول ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: **ما نقول؟**، نأخذ من هذا الرجوع إلى أهل العلم فيما يشكل، وهذا الذي ينبغي أن يُنَشَّأ عليه الناس، وهو الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم فيما يعترضهم من الأمور، وأن لا يعتمد الفرد على رأيه في مسائل العلم، أو يفتي نفسه، والله ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

ويقول الشيخ السعدي: «وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلمُ بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر مَنْ لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث».

[تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ السعدي ٣/ ٦٢]. [فقه السيرة للزيد ٤٥٥].

٥ ـ بيان مكانة الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما:

يقول د/ الزيد: «من قول أبي سفيان بعد انتهاء المعركة: «**أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟**)، فلم يسأل عن أحد من الصحابة سوى عن هذين الصحابيين الجليلين مما يدل على اشتهار وظهور مكانتهما المتميزة حتى عند الأعداء، فهما صاحبا الرسول ﷺ ووزيراه ومستشاراه، وهما أولى الناس بخلافته بعد وفاته ﷺ حيث خلفه أبو بكر ﷺ، ثم عمر ﷺ». [فقه السيرة للزيد ٤٥٤-٤٥٥].

ويقول د/ أبو فارس: «يخطر في خلد القارئ ويتساءل: لم سأل أبو سفيان عن مصير رسول الله ﷺ، ومصير أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولِمَ لَمْ يسأل عن غيرهم من سائر المسلمين؟

لاشك أن هذا يدل على اهتمام أبي سفيان بهم؛ لأنه في علمه وعلم قومه أنهم أهل الإسلام، وبهم قام صرح الإسلام، فهم أركان الدولة وأعمدة النظام. كيف لا؟

فأبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال وأنفق أمواله في سبيل نشر هذا الإسلام، ورفيق رسول الله ﷺ في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ ومطهر الجزيرة العربية من الشرك، وقاهر المرتدين.

وعمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وسُر المسلمون بإسلامه سرورًا عظيمًا، وقويت روحهم المعنوية، وأظهروا إسلامهم، وكان أشد الناس على المشركين في مواقفه الكثيرة، في الهجرة، في أسرى بدر إذ رأى أن يَقتل كل قريب قريبه حتى يعلم الله أنَّه ليس في قلوب المسلمين على المشركين هوادة». [غزوة أحد لأبي فارس ٩٢].

٦ ـ التسامي برغائب النفس إلى المستوى الإنساني الكريم:

يقول د/ أبو فارس: «ولقد ارتكب المشركون صورًا من الوحشية تدل على انعدام الآدمية والإنسانية عندهم، حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين فبقروا بطون كثير من القتلى وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان، ومذاكير بعضهم.

إن هذه الأفعال التي تنبو عن الذوق الإنساني لا تدل على جرأة فاعليها أو شجاعتهم أو بلائهم في القتال؛ لأن الرجولة الحقة، والشجاعة الصادقة، تكونان بملاقاة الأحياء ومبارزتهم في ساحات الوغى وميادين القتال، أما الأموات فلا رجولة عليهم، والجرأة عليهم تكون من أهل الخسة والنذالة.

إن الإسلام ـ وهو المبدأ الرباني ـ يحرم على أتباعه أن يمثلوا بجثث القتلى، ويعتبر مقترفها آثمًا يستحق العذاب.

ولهذا نقرأ في وصايا النبي ﷺ ووصايا الخلفاء الراشدين من بعدهم النهي الصريح عن المثلة والخيانة.

عَنْ الهَيَّاجِ بْنِ عِمْرَانَ أَنَّ عِمْرَانَ أَبَقَ لَهُ غُلَامٌ، فَجَعَلَ لله عَلَيْهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ، فَأَرْسَلَنِي لِأَسْأَلَ لَهُ، فَأَتَيْتُ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ رضي الله عنه فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: كَانَ نَبِيُّ الله ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ، فَأَتَيْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنه فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ.**

[أبو داود في الجهاد (٢٦٦٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، وأحمد عن عمران بن حصين رضي الله عنه (١٩٨٤٤، ١٩٨٤٦)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن].

وروى ابن إسحاق بسند متصل عَنْ **سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ** رضي الله عنه قَالَ: **مَا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي مَقَامٍ قَطُّ فَفَارَقَهُ حَتَّى يَأْمُرَنَا بِالصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ.** [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٧، وقال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ١٧٨: «وهو حديث صحيح في النهي عن المثلة»]. [غزوة أُحد لأبي فارس ١٠٤].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ومما لابد أن نعرض له في هذا المقام التمثيل بالقتلى، فقد حدَّث صالح بن كيسان كما روى ابن إسحاق أن هندًا بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم ولده معاوية هي ونسوة معها وقعن يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يجدعن الآذان والأنوف، حتى اتخذت هند منها خدمًا وقلائد، وأعطت قلائدها وقرطتها وخدمها الذهبية هدية إلى وحشي غلام جبير بن مطعم مكافأة له على قتله حمزة بن عبد المطلب ﷺ، ولم تكتف بذلك بل بقرت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها، ولما لم تستطع إساغتها لفظتها، وفعلت النساء وبعض الرجال بالقتلى من المسلمين قريبًا مما فعل بحمزة ﷺ عدا قصة الكبد.

ولما التمس رسول الله ﷺ عمه ووجده مُثلًا به هكذا ساءه ذلك وقال: «**وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنْ المَوَاطِنِ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ**»، ولما علم الصحابة ﷺ بقول رسول الله ﷺ قالوا مثل قوله وأشد، وتلك كانت عادة العرب في جاهليتهم، إذا بلغ منهم الغيظ من عدوهم مبلغه انتقموا منهم بالتمثيل بالقتلى، فما موقف الإسلام من هذه العادة التي تكاد تكون نزعة طبيعية يغذيها حب الانتقام المسيطر على كثير من النفوس؟

لقد حرم الإسلام المُثلة وأنزل في التحريم قرآنا يُتلى، وأمر الرسول ﷺ بالإحسان في الذبحة والقتلة حتى مع الحيوان والطيور: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: إِنَّ اللهَ ﷻ أَنْزَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَوْلِ أَصْحَابِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[النحل] فَعَفَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَبَرَ وَنَهَى عَنْ الْمُثْلَةِ، وقال: «**أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ**».

[الروض الأنف ٣/ ١٧٠، وينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ١٩٦- ١٩٧، حيث أورد حديث التمثيل بحمزة ﷺ، وقول النبي ﷺ: لولا أن تحزن صفية... ثم قال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه)].

هذا موقف الدين الإسلامي الحنيف، غاية في التسامح والتسامي برغائب النفس وميولها إلى المستوى الإنساني الكريم، ولكنه ـ كما يحلو لأعدائه أن يصفوه ـ في نظر أعدائه دين الهمجية والوحشية، ألا فليكتب التاريخ وليشهد العدول من الناس.

على أن العرب لم يكونوا يمثلون بالقتلى إلا عند الغيظ الشديد حبًّا للانتقام في مواقف معينة، مما دفع أبا سفيان إلى إعلان براءته مما فعل بالقتلى، فينادي: **إنه كان في قتلاكم مُثُل**، ويقسم: **والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت**، أي أن موقفه كان سلبيًّا فيما حدث من تمثيل بالقتلى».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٥٧-٥٩].

ويقول ل/ فرج: «من أهم العلامات البارزة في موقعة أُحد أن المسلمين ـ وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ ـ قد ارتفعوا بأحداث الحرب إلى مستوى الإنسانية والرحمة، وهذه نقطة إشراق في تاريخ الإسلام،

فكيف تتحكم في الإنسان إنسانيته وسط السيوف؟ وكيف يستجيب المقاتِل إلى دواعي الرحمة حيث تُستباح النفوس؟

لقد جاء الإسلام ليضع دستورًا للحياة البشرية، ينظم أمورها ويقرر أحكامها، فإذا كانت الحرب في نظام الوجود الإنساني، فلابد أن تُهذَّب هذه الحرب، حتى لا تخرج عن حدود الإنسانية ولا تخلو من الرحمة، وإذا كان الباعث على الحرب هو الدفاع عن الحق والخير والفضيلة، فلابد من أن تلتزم الحرب بإنسانية الإنسان، وأن تكون رحيمة به، فلا تُنتهك الحرمات، ولا تُهتك الأعراض، ولا يُمَثَّل بالقتلى، ولا يُضار مجاهد في سبيل الله.

ولقد كانت كل مظاهر الإنسانية والرحمة رداء لكل فعل إسلامي في معركة أُحد، لقد قَتل المشركون حمزة بن عبد المطلب ﷺ عم الرسول ﷺ وحبيبه وأدنى قرابته إليه وسيد الشهداء وأسد الله، ولم يكتف أبو سفيان بقتله، بل عمد إلى جثمانه الطاهر فأخذ يضرب بالرمح في شدقه، ويقول: «**ذُقْ عُقَقُ**»، وأغضب هذا التصرف سيد الأحابيش فقال: «**هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ يَصْنَعُ بِابْنِ عَمِّهِ مَا تَرَوْنَ لَحَمًا؟**»، ولو كان حمزة ﷺ حيًّا ما استطاع أبو سفيان أن يقترب منه ولولَّى الأدبار إذ رآه، أي تصرف هذا الذي فعله أبو سفيان برجل مقتول؟ وأين هي الرحمة في قلبه؟ بل وأين هي إنسانيته؟

وها هي ذي هند بنت عتبة تأتي جثمان حمزة ﷺ، فتبقر بطنه وتُخرج كبده وتلوكها وتجدع أنفه وأذنيه وتجعل منها قلائد في عنقها، هل هذا هو منطق الرحمة؟ وهل هذه هي مرتبة الإنسانية لدى قريش؟

لقد اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا له: «**لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثِّلَهَا أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ**»، ويستجيب رسول الله ﷺ لمنطق العاطفة التي كانت تربطه بحمزة ﷺ، فيقول: «**لَئِنْ أَظْفَرَنِي اللهُ تَعَالَى بِقُرَيْشَ فِي مَوْطِنٍ مِنَ المَوَاطِنَ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ**»، إلا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أبى أن يهبط المسلمون إلى مستوى أعدائهم، فيتعاملون مثلهم بروح لا إنسانية فيها، خالية من العطف والرحمة، فأنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل]، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى العفو عن سوء ما فعل القوم والصبر على ما ارتكبوه ونهى عن المثلة: «**إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ**». [تاريخ الطبري ٥/ ١٤٨].

قَتل أبو الحكم بن الأخنس بن شريق وهو من كفار قريش عبدَ الله بن جحش ﷺ بعد قتال عنيف، انقطع فيه سيف عبد الله ﷺ، فلما تمكن منه مَثَّل به، ولما رأى أبو قتادة الأنصاري ﷺ انتشار المُثلة بالمسلمين، أراد أن يُمَثِّل بقتلى قريش، فقال له رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا قَتَادَةَ، إِنَّ قُرَيْشًا أَهْلُ أَمَانَةٍ، مَنْ**

بَغَاهُمُ العَوَاثِرَ كَبَّهُ اللهُ لِفِيهِ، وَعَسَى إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَحْقِرَ عَمَلَكَ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَعَالَكَ مَعَ فَعَالِهِمْ، لَوْلَا أَنْ تَبْطَرَ قُرَيْشٌ لَأَخْبَرْتُهَا بِمَا لَهَا عِنْدَ اللهِ»، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ﷺ: **وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا غَضِبْتُ إِلَّا للهِ وَلِرَسُولِهِ حِينَ نَالُوا مِنْهُ مَا نَالُوا**، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«صَدَقْتَ، بِئْسَ القَوْمُ كَانُوا لِنَبِيِّهِمْ»**.

[المغازي للواقدي ١/ ٢٩٠-٢٩١، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٢٣٠].

والتعرض للنساء خلال القتال أمر لا يتفق مع الإنسانية والرحمة، فالمرأة لم تُخلق لقتال ولا تتحمل طبيعتها المبارزة والنزال، ولا تملك قدرة على المحاورة والمناورة، وهى حين خرجت مع الخارجين إنما خرجت لتحمس ولتثير الحمية ولتدفع الرجال إلى غمار المعركة بقوة، ولتقدم العون التمويني للمقاتلين؛ ولهذا لا يجوز أن تتعرض لهجوم الرجال وأن تكون هدفًا لسيوفهم.

ولكن كفار قريش كان الكفر قد أعمى بصيرتهم، وحجر قلوبهم، وأنساهم إنسانية الإنسان ونزع منهم الرحمة، فلم يفرقوا بين رجل يملك القدرة وامرأة لا تملكها، وجعل الرجل منهم نفسه صنوًا للمرأة يقاتلها ويقتلها، فها هو ذا **ابن قمئة** يلتقي **بأم عمارة** فيضربها بسيفه ويصيبها بجرح أجوف له غور، بينما يحتمي هو داخل درعين، فلا تملك أن تصيبه لترد عن نفسها عدوانه، وها هو ذا **حبان بن العرقة** يلقى **أم أيمن** أثناء القتال، وكانت تسقي الجرحى، فرماها بسهم وأصابها، فوقعت على الأرض وانكشفت عورتها، فضحك وأغرق في الضحك، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فدفع إلى سعد ﷺ سهمًا وقال له: **«ارْمِهِ بِهِ»**، فوقع السهم في نحره فوقع مستلقيًا وبدت عورته، فضحك رسول الله ﷺ وقال: **«اسْتَقَادَ لَهَا سَعْدٌ»**.

وفارق كبير بين الصورتين، بين رجل يعبث بكرامة امرأة ويكشف عورتها، وبين رجل ينتقم لها، ولكن انتقامه من رجل مثله.

وإذا كان هذا هو تصرف كفار قريش فكيف كان تصرف المسلمين؟

ها هو ذا أبو دجانة ﷺ حَمَلَ بالسيف على رجل، ثم اكتشف أنه امرأة فرفض أن يطعنها وقال في ذلك: «رَأَيْتُ إِنْسَانًا يَخْمُشُ النَّاسَ خَمْشًا شَدِيدًا (أي يحرضهم على القتال)، فَصَمَدْتُ لَهُ فَلَـمَّا حَمَلتُ عَلَيْهِ السَّيْفَ وَلوَلَ (أي صاح فزعًا)، فَإِذَا امْرَأَةٌ، فَأَكْرَمْتُ سَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ أَضْرِبَ بِهِ امْرَأَةً»، وكانت هذه المرأة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان.

ولم يكن مقتل أبي عزة الجمحي خروجًا على القاعدة الإنسانية أو مبادئ الرحمة التي أرساها الإسلام، فالثابت تاريخيًّا أن أبا عزة وقع أسيرًا في يد المسلمين يوم بدر، وطلب من رسول الله ﷺ أن يَمُنَّ عليه من أجل بناتِه، فمَنَّ عليه رسول الله ﷺ، وكان هذا دليل رحمة به وبأولاده، وكان قد عاهد ألا يُحرض على المسلمين، ولكنه حين رأى قريشًا تتجهز للخروج إلى أُحد، سار بين القبائل يُحرضها

على الخروج ويثيرها على الرسول ﷺ؛ ولهذا رأى رسول الله ﷺ ألا يَمن عليه حين وقع في الأسر مرة ثانية قائلًا: «**وَاللهِ لَا تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا، وَتَقُول: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ**».

وقد رفض رسول الله ﷺ أن يأذن لأصحابه بقتل **مربع بن قيظي** الذي أخذ حفنة من تراب وقال له: **وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصِيبُ بِهَا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدُ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ**.

فَابْتَدَرَهُ القَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الأَعْمَى أَعْمَى القَلبِ، أَعْمَى البَصَرِ**».

وهكذا التزم المسلمون وهم جند الرحمن دعاة دينه وحملة رسالته وحماة دينه، بالخلق الإسلامي الرفيع، وبالرحمة التي دعا إليها الإسلام، وبالتعامل مع الأعداء تعاملًا إنسانيًّا، لا يهبط إلى مستوى تعاملهم الحيواني البربري الرخيص». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٥٦-٢٥٨].

٧ ـ إرساء أصول العدالة:

يقول د/ فيض الله: «رأينا كيف أن النبي ﷺ بعد أن انقضت المعركة، اتجه إلى مصارع الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله، يواسي فيهم نفسه، وأصحابه، ويفرغ في ضمائرهم التسليم لأمر الله، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

فماذا قال ﷺ حيال مشهد عمه حمزة ﷺ، وهو مبقور البطن، مَلوك الكبد، مجدوع الأنف، مصلوم الأذن؟!

قال ابن حجر: وَذَكَرَ اِبْنُ إِسْحَاق قَالَ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن الزُّبَيْر قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يَلتَمِسُ حَمْزَةَ ﷺ، فَوَجَدَهُ بِبَطْنِ الوَادِي قَدْ مُثِّلَ بِهِ، فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ ـ يَعْنِي بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ـ وَتَكُونُ سُنَّةً بَعْدِي لَتَرَكْتُهُ حَتَّى يُحْشَرَ مِنْ بُطُونِ السِّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ**»، زَادَ اِبْن هِشَام قَالَ: وَقَالَ: «**لَئِنْ أُصَابَ بِمِثْلِك أَبَدًا، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا**»، وَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: «**إِنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ المطَّلِبِ مَكْتُوبٌ فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المطَّلِب ، أَسَدُ الله وَأَسَدُ رَسُولِهِ**».

وَرَوَى البَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ ضَعْفٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَـمَّا رَأَى حَمْزَةَ قَدْ مُثِّلَ بِهِ قَالَ: «**رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ، لَقَدْ كُنْتَ وَصُولًا لِلرَّحِمِ، فَعُولًا لِلخَيْرِ، وَلَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدِكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدَعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ أَجْوَافِ شَتَّى**»، ثُمَّ حَلَفَ وَهُوَ بِمَكَانِهِ «**لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ**»، فَنَزَلَ القُرْآنُ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾الآية».

وَعِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ أَحْمَد فِي زِيَادَاتِ المُسْنَدِ وَالطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: مَثَّلَ المُشْرِكُونَ بِقَتْلَى الـمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الأَنْصَارُ: «**لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ لَنَزِيدَنَّ عَلَيْهِمْ**»، فَلَـمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ نَادَى رَجُلٌ: **لَا قُرَيْشَ بَعْدَ اليَوْمِ**، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُفُّوا عَنْ القَوْمِ**».

وَعِنْدَ اِبْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ مُقْسِمٍ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﷺ نَحْوُ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ بِاخْتِصَارٍ، وَقَالَ فِي آخِرِهِ «فَقَالَ: **بَل نَصْبِر يَا رَبِّ**». وَهَذِهِ طُرُق يُقَوِّي بَعْضهَا بَعْضًا». [**فتح الباري ٧/ ٤٣٠**].

النفس البشرية قد تخضع في بعض أوقاتها للعاطفة، والموقف فظيع، والممثَّل به عزيز غالٍ مكين، ويد الإثم تفتك بأطهر الأصحاب، وأفضل الأرحام والأعمام، لكن ذلك كله لا يغير من المبدأ الراسخ في الإسلام، ولا من الحقيقة المقررة في شرع الله، وهي المماثلة في العقاب، وحظر التجاوز، بل التوجيه إلى التغاضي عن جرائم الآخرين، والتذرع بالصبر، والتحلي بالعفو، والترفع عن مطالب النفس، والارتفاع إلى مرضاة رب العالمين: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[النحل].

إن مبدأ المعاقبة بالمثل، يرفع الظلم، ويُرسِي أصول العدل، حيث تستشرف النفس البشرية للانتقام، وعلى التخصيص في الحروب، وجرائم الدمار والأرواح، لكن الشريعة جاءت لصيانة النفس، وهذا من مقاصدها الأُولى، التي استهدفت بها مصالح الناس؛ لذلك قطعت كل الوسائل التي من شأنها أن تزعزع هذا المبدأ، أو تهزه، أو تقلِّل من سلطانه، حتى بالنسبة إلى أعداء الدين من الكفرة والمشركين، فمثل هؤلاء يجب إنصافُهم إذا ظلموا، وذلك بالمعاملة بالمثل، والظالم لا يُظلم بسبب ظلمه، ولكن يُنتَصَف منه بالحق والعدل.

إنَّ هذه المبادئ التي يطبقها الإسلام تطبيقًا سليمًا، حتى في أحلك الظروف، وأسوأ الأحوال، تُزيد ـ بطبيعتها ـ المؤمنَ إيمانًا، وتُزيل شكوك الكافر، وتُخضِعُه للرضا بحكمه، إنها تجر الكافرين إلى الإسلام تلقائيًّا، دون أن يشعروا بانجذابهم نحوه، إنها هي التي تقرر حتمية النصر في المعارك المصيرية للإسلام، إنها تجعل الإسلام ـ كما هو في الواقع ـ فوق مستوى الشبهات والأهواء والمطامع.

إن الإسلام لا يأمر بالمعاقبة بالمثل، وينهى عن الاعتداء فحسب، بل يأمر مع ذلك، وفي الوقت نفسه، بالتجرد لله، والاحتساب بالصبر ابتغاء الخير عنده؛ لأنه يُقدِّر ما في هذا المخلوق من تَسلُّط الضعف النفسي أحيانًا، فيرده إلى الحق المقرر، ويرتفع به إلى مراقي الصعود، ومراتب الآفاق، وعوالم الأشواق، حيث تموت حظوظ النفس، ويعده إعدادًا خاصًّا، لمركزه المرموق في جنة النعيم: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٠]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[الشورى]». [**صور وعبر لفيض الله ١٢٧-١٢٨**].

ويقول أ/ خالد: «ولكن الله ﷻ الذي أكرم حمزة ﷺ بالشهادة، يكرِّمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فرصة لدرس عظيم يحمي العدالة إلى الأبد، ويجعل الرحمة حتى في العقوبة والقصاص واجبًا وفرضًا.

وهكذا لم يكد الرسول ﷺ يفرغ من إلقاء وعيده السالف حتى جاءه الوحي وهو في مكانه لم يبرحه بهذه الآية الكريمة، فعفا رسول الله ﷺ، وصبر ونهى عن المُثلة.

وكان نزول هذه الآيات، في هذا الموطن، خير تكريم لحمزة ﷺ الذي وقع أجره على الله.

كان رسول الله ﷺ يحبه أعظم الحب، فهو كما ذكرنا من قبل لم يكن عمَّه الحبيب فحسب، بل كان أخاه من الرضاعة، وتِرْبه في الطفولة، وصديق العمر كله». [رجال حول الرسول ﷺ لخالد ١٧٣-١٧٤].

٨ ـ الإسلام يُهذِّب الأخلاق، ويستأصل الأحقاد:

يقول د/ فيض الله: «رأينا كيف مثَّلت قريش بقتلى المسلمين، وكيف دفعها الحقد الدفين إلى ارتكاب ألوان من التمثيل بهم، تَتقزَّز منها النفوس، وتقشعِرُّ لها الأبدان: فَفَقأَت الأعين، وجَدَعَت الأُنوف، وصَلمت الآذان، وبقرت البطون، وأفرطت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان في التشفِّي وإرواء الحقد، فاتخذت عقدًا لها من الآذان والأنوف، ولم تكتفِ بذلك، بل أهوت على جثمان حمزة ﷺ، فبَقَرَت بطنه، وسحبت كبده، فقَضَمَتها ومضَغَتها، ثم لَفِظَتها لـمَّا لم تَستَسِغْها.

وكَمَّل زوجها أبو سفيان، زعيم قريش وقتئذ، وقائد الحملة، فشَقَّ برمحه شدق رحمه حمزة ﷺ، وهو يقول: «**ذُقْ عُقَقُ**».

هذه صور من أخلاق قريش قبل الإسلام، وإلى هؤلاء ومن هؤلاء بُعثَ الرسول ﷺ ليُقَوِّم هذه الأخلاق، ويذيب هذه الأحقاد، ويزرع محلها الأخوة، والتضحية والبذل، والإيثار، واستطاعت دعوة محمد ﷺ أن تستأصل الكثير السيِّء من هذه الرواسب الجاهلية، وأن تستبدله بحميد الخصال، وجميل الآداب، ومحاسن الأخلاق ومكارمها، ومن هؤلاء أخرجت الدعوة الإسلامية خيرَ أمة أُخرِجت للناس: في الأخلاق، والسلوك، والعقيدة، والتزام الإحسان في كل شيء.

فما أعظم فضل الإسلام على العرب والإنسانية؟ وماذا عسى أن يكتب التاريخ عن العرب، وهذه صور من فظائعهم وخصالهم، لو لم يشرق الإسلام في ربوعهم، ولو لم يُصقِل نفوسَهم، ويطهر قلوبهم من عفن الشرك، ولوث الكفر؟

لقد تأخر إسلام أبي سفيان هذا، وإسلام زوجته، واستمرت مقاومتهما للإسلام، كما تأخَّر إسلام وحشيٍّ قاتل حمزة ﷺ، حتى كان الفتح، فدخلوا في الإسلام، وجاهدوا مع المسلمين، واصطبغوا بصبغة الإسلام، أدبِه وخُلقِه.

فوحشي شارك بعد إسلامه في حروب الردة، وفي حرب اليرموك.

وأبو سفيان أسلم عام الفتح، وحارب مع المسلمين، فشهد حُنَينًا والطائف، وفُقِئَت فيها عينه.

وهند بنت عتبة أسلمت أيضًا يوم الفتح، وبايعت النبي ﷺ فيمن بايعه من النسوة، وكسرت صنمها بالقدوم، وحسن إسلامها ـ كما يقول رواة الحديث ـ وشكت زوجها إلى النبي ﷺ وهي منتقبة.

حتى هؤلاء الذين اقترفوا أبشع أنواع التمثيل بشهداء المسلمين، بسط لهم الإسلام جناحيه، فدخلوا فيه عن قناعة ويقين، وحسن إسلامهم، واستقاموا على طريقته، وتخلقوا بأخلاقه».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٢٨-١٣٠].

٩ ـ العفو عند المقدرة:

يقول أ/ عبَّاد: «ما أعظمها تربية وما أحلاه توجيهًا من الله لأمة الإسلام وبخاصة الدعاة منهم، فحملُ الدعوة ونشرها بين الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له، ولا تقبيح ـ سيعرضهم بطبيعة الحال للاعتداء من قِبَل أصحاب المصالح والأحقاد، إما بالقتل أو الضرب أو السب، فإذا وقع هذا الاعتداء عليهم فإن الموقف سوف يتغير؛ لأن الاعتداء عمل مادي يُدفع بمثله، إعزازًا لكرامة الحق الذي تحمله الأمة ودفعًا للباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدود المثل دون زيادة كتمثيل أو تقطيع؛ لأن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به؛ ولأن الإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم، وإنما يدفع عن نفسه البغي والظلم ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وبهذا القصاص العادل لا تهون الدعوة في نفوس معتنقيها؛ لأن الدعوة المهينة لا يثق أحد أنها دعوة الله، والمؤمنون بالله الذين يريدون قيادة البشرية لا يرضون الضيم، ولابد من تأديب أولئك السفهاء، وإلا ما استطاعوا إقامة الحق في الأرض وتحقيق العدل بين الناس، ومع أن الله يوجههم ويقرر لهم قاعدة القصاص بالمثل فإنه سبحانه يدعوهم إلى العفو والصفح: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، فما أعظم التوجيه بأن يكونوا قادرين على دفع الشر ووقف العدوان مع حب العفو والصفح، ففي الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرًا أو أكثر فائدة للدعوة، فأشخاصهم ـ ساعتها ـ لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصدق، أما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها فقاعدة القصاص هي الأولى.

وقد عدل النبي ﷺ عن عزمه على التمثيل بقتلى العدو بعد نزول هذه الآية، ثم عفا وصبر، بل ونهى عن المثلة أيًّا كانت وفي أي مكان». [مفاهيم تربوية من غزوة أحد لعبَّاد ١٥٤-١٥٥].

١٠ ـ لا يُلدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ:

يقول د/ فيض الله: «لـمَّا انصرف المسلمون من حمراء الأسد، أسروا في طريقهم أبا عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، الشاعر، وكان ممن أُسر يوم بدر من المشركين، واستغاث بالنبي ليمنَّ عليه، من أجل بناته، فمنَّ عليه بلا فدية، وشرط عليه أن لا يقاتله إذا قاتله المشركون، فوعده بذلك.

لكن نكث عهده، وقاتل مع المشركين يوم أحد، فلما أُسر وجيء به إلى النبي ﷺ قال يا محمد: امنن عليَّ لبناتي، وأعاهدك أن لا أقاتلك، فقال النبي ﷺ : «**وَاللهِ لَا تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ** (تثنية عارض، وهو

صفحة الخد) **بِمَكَّةَ بَعْدَهَا، وَتَقُولُ: خَدَعْت مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ، لَا يُلْدَغُ** (ما يكون من ذوات السموم) **الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»** [الجزء الأخير صحيح: (حم خ م د هـ) عن أبي هريرة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ٧٧٧٩].

ثم أُمر به فضُربت عنقه.

وتقرر هذه الحادثة الجزئية مبدأين هامين:

١ـ أن الإسلام في طبيعته السماحة، وحب العفو، والرفق بالآخرين، وعلى التخصيص المستضعفين من الناس، كالبنات والصغار ومَنْ إليهم، وظهر ذلك جليًّا في هذه الحادثة، عندما أطلق النبي ﷺ أبا عزة هذا، ومَنَّ عليه بلا فداء بعد أسره، وذلك من أجل بناته الصغيرات، وفي هذا الاستثناء، لهذا المعنى، من حكم فداء الأسرى بمقابل مال جَمٍّ يُدفع عن كل فرد، من الدلالة على سماحة الإسلام، وأخذه أحوال الضعفاء بعين الاعتبار، شيء كثير، فإذا ضُمَّ إليه أن المسلمين وقتئذ كانوا في فقر وفاقة، وحاجة ملحة ـ كما رأينا في خروجهم جياعًا عراةً حفاةً إلى بدر ـ كانت الدلالة على سماحة الإسلام، وإيثاره العفو، والصفح الجميل أكثر.

٢ـ أن للعفو أبعادًا محدودةً، وفواصل مُقَدَّرَة، إذا تُجُووِزَتْ، أدت إلى مضمون مضاد، ومعنى غير حميد في مجالات السياسة والإدارة، كالغباء والخديعة، والغفلة والبساطة؛ والمؤمن في معزل عنها، فضلًا عن صاحب الرسالة، النبي الأعظم ﷺ.

لهذا لما منَّ عليه أولًا إِثْر بدر، كان متسقًا مع المبدأ الأول، في غاية الاتساق؛ فلما نكث بعهده، وظاهَرَ المشركين على المسلمين في أُحُد، وأُسر بعد حمراء الأسد، لم يكن في المقدور أن يعفو عنه أو يَمُنَّ عليه؛ فتكرار الأذى، ونقض العهد، يدل على خُبث في الباطن، وفساد في الجبلة، كما سيُستغل في التبجح بخديعة المسلمين، والاتجار بها في محافل أهل الشرك، فكان الاعتذار عن المن بلا فداء ـ رغم وجود البنات الصغيرات ـ؛ لأن سُمعة الإسلام، ومصلحة الدعوة العامة، تَرْبُو رعاية الصغار، وتعهد البنات، وكان توجيه الاعتذار بهذه الحكمة النبوية الأصيلة: «**لا يُلدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**» دعمًا لموقف النبوة، الذي تتمثل به العزيمة الماضية، والتربية الصارمة، والشدة في موضعها المناسب؛ كما يتمثل فيه العقاب على النكث بالعهود، كيلا تكون نهبة أهل اللعب والعبث من قليلي المروءة؛ ويتمثل فيه أيضًا الحفاظ على مستوى الإسلام الرفيع، بعيدًا عن الشغب والدس بالمكر والخديعة.

وقد ذهبت هذه الحكمة النبوية العظيمة مثلًا عربيًّا سائرًا سائغًا، وتناولتها كتب الحديث بالشرح والتعليق، وتناقلها المحدثون والرواة والكاتبون، وتُعتبر من جوامع الكلم النبوية.

وتفيدنا في هذا المقام أن المؤمن ينبغي أن يكون يقظًا فَطِنًا، فهو لا يعود إلى معصية أو ذنب بعد أن يقارفه، ولا ينبغي أن ينخدع بكلام الغادرين المتمردين مرةً بعد أخرى، وإذا اقتضى المقام العفو والحلم، فإن للغضب لله مقامًا يأبى التحلم والعفو؛ وفي هذا المعنى يقول النابغة:

وَلا خَيْرَ فِي حُلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرا

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٥٩-١٦١].

ويقول أبو الطيب المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ويقول الآخر:

وَالعَفْوُ عِنْدَ لَئِيمِ الطَّبْعِ مَفْسَدَةٌ تُطْغِي، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ الكَرِيْمِ يَدَا

[موارد الظمآن لدروس الزمان للسلمان ٤/ ٢١٧].

١١ ـ الاستهانة بكل تضحية في سبيل العقيدة:

يقول أ/ خلف الله: «لا أدل على درجة الروح المعنوية عند قوم من دراسة نفسيتهم عقب المعركة: فإن سمعنا الولولة واللطم والدعاء بالويل والثبور والجزع على القتلى: فالروح المعنوية ضعيفة، وضعفها جاء من عدم الإيمان بالمبدأ الذي يقاتل القوم عليه، أما إذا صبر كلٌّ على ما أصابه فلم يجزع ولم يستسلم لآلام الحزن وفقد الأحباب والأصحاب فهذا دليل على قوة الروح المعنوية، ودليل على أن القوم يستهينون بكل تضحية في سبيل العقيدة التي يؤمنون بها ويدافعون عنها ويقاتلون عليها، وللروح المعنوية درجات تختلف باختلاف الإيمان وهي تتناسب معه تناسبًا طرديًّا، فتقوى إذا كان قويًّا وتضعف إن كان ضعيفًا، وتصل الروح المعنوية إلى درجة من القوة تجعل الشخص لا يشعر بما أصابه ولا بما أصاب أعز الناس لديه، بل قد يشعر بالألم يحز في نفسه ـ أكثر من مصابه ـ على أمور فاتته كان يجب عليه أن يفعلها ليكون أداؤه لواجبه على وجه أتم وأكمل مما قام به، وهذا كان شعور المسلمين الذين ثبتوا أولم يثبتوا في غزوة أُحد، بل وفي كل غزوة، ونعرض هنا صورًا مختلفة لهذه الروح العالية:

قبل أن يتمكن المسلمون من التعرف على الشهداء، بعث رسول الله ﷺ يبحث عن سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ ﷺ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ أَطْلُبُ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ، فَقَالَ لِي: «**إِنْ رَأَيْتَهُ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ رَسُولُ الله: كَيْفَ تَجِدُكَ؟**»، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَطُوفُ بَيْنَ القَتْلَى، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ بِآخِرِ رَمَقٍ، وَفِيهِ سَبْعُونَ ضَرْبَةً، مَا بَيْنَ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ، وَضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ، وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، فَقُلْتُ: **يَا سَعْدُ إِنَّ**

رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَك: أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: وَعَلَى رَسُولِ الله ﷺ السَّلَامُ، قُلْ لَهُ: يَا رَسُولَ الله أَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ، وَقُلْ لِقَوْمِيَ الأَنْصَارِ: لَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ الله إِنْ خُلِصَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَفِيكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَفَاضَتْ نَفْسُهُ مِنْ وَقْتِه. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٠-١٩١].

بهذه الروح العالية ـ التي لا توجد إلا عند ذوي النفوس الصافية القوية المفعمة إيمانًا ـ استقبل سعد بن الربيع ﷺ الموت، وهو يوصي أهله ولا يبكي على نفسه، بل يحث قومه على التفاني في نصرة رسول الله ﷺ.

«وَمَرَّ **مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُمِ** ﷺ عَلَى **خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ** ﷺ، وَهُوَ قَاعِدٌ فِي حَشْوَتِهِ بِهِ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُرْحًا، كُلُّهَا قَدْ خَلَصَتْ إِلَى مَقْتَلٍ، فَقَالَ: **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ؟** قَالَ خَارِجَةُ ﷺ: **فَإِنْ كَانَ قَدْ قُتِلَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، فَقَدْ بَلَّغَ مُحَمَّدٌ، فَقَاتِلْ عَنْ دِينِكَ**». [المغازي للواقدي ١/ ٢٨٠].

لقد كان **ابْنُ الدُّخْشُمِ** ﷺ المهاجري مذهولًا، ونسي أنه يسأل رجلًا يحتضر، ولكنه يريد أن يتحقق من الخبر بأي وجه.

وإن هذا الأنصاري الجليل وهو على وشك مفارقة الحياة ينصح المهاجري بالطريقة المثلى التي يجب اتباعها، وبترك الجزع في ذلك الموقف.

وفي قصة زوجة عمرو بن الجموح ﷺ ما يجعلنا نلمس الروح العالية التي تجيش بها نفس هذه الصحابية الجليلة: لم تولول، ولم تفقد صوابها، بل شاهدناها ثابتة في حديثها متزنة في كلامها، وما ذلك إلا لأن إيمانها أكبر بكثير من مصابها». [غزوة أُحد لخلف الله ١٠٠-١٠٢].

١٢ ـ بيان مكانة الزوج عند زوجه:

يظهر هذا في موقف حمنة بنت جحش ﷺ، حين نعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش ﷺ، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير ﷺ، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ زَوْجَ المَرْأَةِ مِنْهَا لَبِمَكَانٍ**»، لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها. [غزوة أحد لبامدحج ٢٣٦].

١٣ ـ هول المُصاب لا يطغَى على الحق ولا يُنسِي الأدب:

يقول د/ فيض الله: «كثر الشهداء في أُحد، وبلغوا السبعين، وكان من هدي الإسلام أن يَلَفَّ الشهداء بثيابهم الدامية، دون أن يُغَسَّلوا، ويُدفَنوا حيث قُتِلوا، ودون أن يُنقَلوا إلى مقابر ذويهم في بلدهم.

عَنْ جَابِرِ بنِ عبدِ الله ﷺ قَالَ: لـمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ جَاءَتْ عَمَّتِي بِأَبِي لِتَدْفِنَهُ فِي مَقَابِرِنَا، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ: «**رُدُّوا القَتْلَى إِلَى مَضَاجِعِهِمْ**». [الترمذي في الجهاد (١٧١٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وصححه الشيخ الألباني، وأحمد عن جابر ﷺ (١٣٧٥٥)، ولفظه: «أَنَّ قَتْلَى أُحُدٍ حُمِلُوا مِنْ مَكَانِهِمْ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ أَنْ رُدُّوا القَتْلَى إِلَى مَضَاجِعِهَا»].

أي ادفنوهم في مصارعهم ولا تنقلوهم.

وتشير الروايات الصحيحة إلى أن رسول الله ﷺ أشرف بنفسه على دفن الشهداء، وكان يَجْمَع ـ للكثرة ورفع الحرج ـ بين الشهيدين في قبر واحد، وكان يراعي في اللحد تقديم الأقرأ لكتاب الله، والأكثر حفظًا وتحصيلًا، فيقدمه في اللحد، ثم يُتبَعِه بصاحبه الشهيد الذي هو دونه في ذلك، ثم يقول بعد أن يواريهم في أجداثهم: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**». [البخاري في الجنائز (١٣٤٣)].

وقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ مَجْرُوحٍ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِهِ ـ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ جُرِحَ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**».

[ابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٥)، وصححه الشيخ الألباني، والدارمي في الجهاد (٢٤٠٦)، ولفظ البخاري: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ ـ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ**» كتاب الجهاد والسير باب من يجرح في سبيل الله ﷻ رقم ٢٨٠٣].

فانظر إلى أدب الإسلام في دفن الشهداء، ورعاية حقوقهم، وتكريمهم في مُواراة أجسادهم، وإكبارهم واحترامهم، وإعلام إخوانهم الأحياء بمقامهم ومنازلهم في القيامة، وأحوال الحشر، وأهوال يوم الفزع الأكبر.

وقد يكون من الميسور ملاحظة ذلك في عواقب النصر، والغزوات الموفقة، أما في إثر أُحد، والهزيمة الشنيعة التي مُنِيَ بها المسلمون، فقد يبدو ذلك من الأمور الهينة، التي يمكن التغاضي عنها في تلك الظروف.

لكن الإسلام، لا يُغْفِل حقوق الإنسان، ولا يقصر في واجب تكريمه في كل حال، والحق حق في كل ظرف، والأدب لا يكون أدبًا إلا إذا اطرد واستمر.

وأبرز ما يكون الأدب، حِيَال حَمَلَة القرآن، الآخذين بذكره في البكور والآصال، المتعلقين به في سائر الأحوال، تلاوةً وعملًا والتزامًا.

والأدب الإسلامي بصددهم، أنهم حينما يُدفَنون مَثنَى في قبورهم، يقدم الأقرأ في اللحد، تكريمًا لحَمَلَة الكتاب، وتطويقهم وتجميلهم به، كما يقدم الأقرأ في إمامة الصلاة، والإمامة العامة.

يا الله! لا الحروب ولا الأهوال، ولا الكوارث المدلهمة، ولا الأحداث العصيبة، تعذر أو تغني عن التمسك بالآداب الإسلامية، وعلى التخصيص ما يتصل منها بتكريم الآخرين من الناس، ولو كانوا في عِدَاد الأموات، كلما كان تطبيق الأدب ممكنًا في ذاته.

إن في ذلك لدرسًا بليغًا، يُعلِّم الناس مبلغ حرص الإسلام على تكريم الناس وتوفية حقوقهم، وإنه لدرس يُشْعِر الأحياءَ بكرامة الأموات ـ وعلى التخصيص الشهداء ـ عند ربهم، وإنه لدرس عظيم يُنَبِّئ بأن هذه الحياة لا تنتهي بالموت، بل تبدأ في إثرها حياة برزخية خاصة، يستشعر فيها الميت بضرب من

النعيم أو العذاب، والتكريم أو الإذلال، فليكن من أول ما يستشعر به في مثواه الأخير، تكريمه فيه بحمله القرآن». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٣٣-١٣٥].

١٤ ـ بيان ميزان التفاضل بين الناس:

يقول د/ الزيد: «كان رسول الله ﷺ عند دفن الشهداء يُقَدِّمُ في القبر أكثرهم أخذًا للقرآن، وهذا يدلنا على أمور:

١ـ عظمة هذا القرآن الكريم ورِفعة وشرف حامله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر].

قال ابن كثير: «أي يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾، أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أي لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم، قال قتادة: كان مطرف ﷺ إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القُرَّاء». [تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥٤].

٢ ـ إن ميزان التفاضل بين المسلمين هو التمسك بالإسلام، فأفضلهم أكثرهم تمسكًا بالإسلام، وفي مقدمة ذلك المحافظة على كتاب الله ﷻ، وليس ميزان التفاضل قَبَليًّا أو ماليًّا أو وظيفيًّا، وإنما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحُجُرات: ١٣]، فالتُّقى هو ميزان التفاضل، يقول الشيخ السعدي ﷺ: «فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا». [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ السعدي ٥/ ٧٤].

٣ ـ من حكمة الله ﷻ أن جَعَلَ التفاضل بين الناس في أمور كسبية للإنسان لا قهرية، فالشعوب والقبائل ونحوها للتعارف ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحُجُرات: ١٣]، أما التفاضل المعتبر بين الناس فهو بالتُّقى والصلاح وطاعة الله ﷻ، وهو أمر كسبي، ومثل هذا قوله ﷺ: «**لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**». [البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣) ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)].

وقوله ﷺ: «**وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**». [أبو داود في العلم (٣٠٩٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

ومعنى الحديثين ـ والله أعلم: نحن لا نُورَثُ بالانتساب ولكننا نُورَثُ بالاكتساب، فالتأسي بالنبي ﷺ لا يسبق إليه ذو النسب، وإنما يكون بفعل السبب بطلب العلم والعمل، وقد قال ﷺ في بقية الحديث: «**وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا العِلمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**».

فهم لم يورثوا لقرابتهم شيئًا، وإنما تركوا العلم يتنافس الناس فيه، وبطلبه وبالعمل به يتفاضلون».
[فقه السيرة للزيد ٤٥٦-٤٥٨].

١٥ ـ التحلي بخلق الصبر:

يقول د/ أبو فارس: «إن عقيدة الإسلام التي تتركز في الإيمان بالله ﷻ والرضا بما قدره سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الطمأنينة والسكينة، وهو يواجه الصعاب والآلام.

فالمسلم يؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أهل الدنيا لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، قال ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[التوبة].

وإذا كان الأمر كذلك فإن المسلم إذا ألمت به مصيبة تَجَمَّل بالصبر؛ لأن جزعه لا يُغير من واقع الحال شيئًا؛ ولأن الله سبحانه يجزي الصابرين بالنصر في العاقبة، قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود].

ولقد بشر الله عباده المؤمنين الصابرين بالمغفرة والرحمة على صبرهم فقال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

وفي غزوة أحد تجسد الصبر في أروع صوره عند المسلمين، وقد استعرضنا بعضًا من صور الصابرات: صفية بنت عبد المطلب، وحمنة بنت جحش، والمرأة الدينارية، وزوجة عمرو بن الجموح رضي الله عنهن. [غزوة أُحد لأبي فارس ١٠٧-١١٠].

١٦ ـ الإيثار والبعد عن الأنانية:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر موقف أخلاقي نبيل، وذلك حينما واسى آل حمزة أخاه الأنصاري المقتول بجانبه في الكفن، فجعلوا لكل واحد منهما ثوبًا، ويبلغ هؤلاء العظماء منتهى النبل في المعاملة حينما لجأوا إلى القرعة في توزيع الثوبين على الشهيدين ولم يفضِّلوا حمزة بأكبرهما.

إن هذا المشهد يكشف لنا صورة من أخلاق الصحابة ﷺ العالية في المعاملة بينهم من الإيثار والمواساة والبعد عن الأثرة والأنانية». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٤٤].

١٧ ـ أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ:

قال ابن كثير: «سُمِّيَ أُحُدٌ أُحَدًا لِتَوَحُّدِهِ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْجِبَالِ، وَفِي الصَّحِيحِ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». [البخاري في الزكاة (١٤٨٢)، وفي الجهاد والسير (٢٨٨٩، ٢٨٩٣)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٦٧)، وفي

المغازي (٤٠٨٣، ٤٠٨٤، ٤٤٢٢)، وفي الأطعمة (٥٤٢٥)، وفي الدعوات (٦٣٦٣)، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٣٣)، ومسلم في الحج (١٣٦٥، ١٣٩٢ و١٣٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٢)، وابن ماجه في المناسك (٣١١٥)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٢٤٥)، وعن أنس ﷺ (١٢٠١٣، ١٢١٠١، ١٢٢٠٥، ١٣١١٣، ١٣١٣٦)، وعن سويد الأنصاري ﷺ (١٥٢٣٢)، وعن أبي حميد الساعدي ﷺ (٢٣٠٩٣)، والموطأ باب ما جاء في تحريم المدينة رقم ١٦٤٥].

قِيلَ: مَعْنَاهُ أَهْلُهُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ يُبَشِّرُهُ بِقُرْبِ أَهْلِهِ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرِهِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُحِبُّ.

وَقِيلَ: عَلَى ظَاهِرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]. [الروض الأنف تح الوكيل ٥/ ٤٤٨].

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ أَبِي عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُحُدٌ هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا عَيْرٌ جَبَلٌ يُبْغِضُنَا وَنُبْغِضُهُ، وَإِنَّهُ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ**». [مجمع الزوائد ٣/ ٦٨٧ رقم ٥٩١٢، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٥٨ رقم ١١٩٩]، والطبراني في الكبير والأوسط [٦/ ٣١٥ رقم ٦٥٠٥]، وفيه عبد المجيد بن أبي عبس، لينه أبو حاتم، وفيه من لم أعرفه].

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: مُقَوِّيًا لِهَذَا الْحَدِيثِ: وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ صُنْعِ السُّهَيْلِيِّ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ النَّاسُ، وَلَا يُسَمَّى الْجَبَلُ امْرَأً».

[البداية والنهاية ط هجر ٥/ ٣٣٧-٣٣٨].

وقال ابن حجر: «قَوْلُهُ: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**» ظَهَرَ مِنَ الرِّوَايَةِ الَّتِي بَعْدَهَا أَنَّهُ ﷺ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا رَآهُ فِي حَالِ رُجُوعِهِ مِنَ الْحَجِّ.

وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَبِي حُمَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا رَجَعَ مِنْ تَبُوكَ وَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: «**هَذِهِ طَابَةُ**»، فَلَمَّا رَأَى أُحُدًا قَالَ: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»، فَكَأَنَّهُ ﷺ تَكَرَّرَ مِنْهُ ذَلِكَ الْقَوْلُ.

وَلِلْعُلَمَاءِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ أَقْوَالٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالتَّقْدِيرُ: أَهْلُ أُحُدٍ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْأَنْصَارُ؛ لِأَنَّهُمْ جِيرَانُهُ.

ثَانِيهَا: أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لِلْمَسَرَّةِ بِلِسَانِ الْحَالِ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ؛ لِقُرْبِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَلُقْيَاهُمْ، وَذَلِكَ فِعْلُ مَنْ يُحِبُّ بِمَنْ يُحِبُّ.

ثَالِثُهَا: أَنَّ الْحُبَّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ؛ لِكَوْنِ أُحُدٍ مِنْ جِبَالِ الْجَنَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَبِي عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ مَرْفُوعًا: «**جَبَلُ أُحُدٍ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، وَهُوَ مِنْ جِبَالِ الْجَنَّةِ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَلَا مَانِعَ فِي جَانِبِ الْبَلَدِ مِنْ إِمْكَانِ الْمَحَبَّةِ مِنْهُ، كَمَا جَازَ التَّسْبِيحُ مِنْهَا، وَقَدْ خَاطَبَهُ ﷺ مُخَاطَبَةَ مَنْ يَعْقِلُ، فَقَالَ لَمَّا اضْطَرَبَ: «**اسْكُنْ أُحُدُ**» الْحَدِيثَ.

وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: كَانَ ﷺ يُحِبُّ الْفَأْلَ الْحَسَنَ وَالِاسْمَ الْحَسَنَ، وَلَا اسْمَ أَحْسَنُ مِنِ اسْمِ مُشْتَقٍّ مِنَ الْأَحَدِيَّةِ، قَالَ: وَمَعَ كَوْنِهِ مُشْتَقًّا مِنَ الْأَحَدِيَّةِ فَحَرَكَاتُ حُرُوفِهِ الرَّفْعُ وَذَلِكَ يُشْعِرُ بِارْتِفَاعِ دِينِ الْأَحَدِ وَعُلُوِّهِ، فَتَعَلُّقُ الْحُبِّ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى فَخُصَّ مِنْ بَيْنِ الْجِبَالِ بِذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٧٨، وينظر للتفصيل: أحد: الآثار، المعركة، التحقيقات للصاعدي والمحمدي ص١٢-١٥].

ومن الحكم في ذكر محبة رسول الله ﷺ لجبل أحد نفي التشاؤم بأحد بعد ما حدث عنده ما حدث. [الأساس في السنة وفقهها ٢/ ٥٤٠-٥٤١].

ويقول أ/ كولن: «في أُحد تميز المؤمن عن المنافق، والوفي عن الجاحد، والشجاع عن اللئيم وعن الجبان، والمرتبطون بالنبي ﷺ ارتباطًا حقيقيًّا عن الذين في قلوبهم مرض، معركة أُحد هذه سيتم ذكرها على الدوام بنوع من الأسى.

في أَحد الأيام وبينما النبي ﷺ يمر من سفح جبل أُحد ألقى إليه نظرة طويلة ثم قال: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». [سبق تخريجه قريباً].

وكأن هذا القول ـ دفاعًا عن جبل أُحد ـ يهب علينا من وراء أربعة عشر قرنًا لمن يحمل في قلبه أي شعور بالأسى نحو جبل أُحد، فرسول الله ﷺ لا يريد منا إسناد الشؤم أو عدم الوفاء لجبل أُحد؛ لذا قال هذا القول ليكون بردًا وسلامًا للقلوب التي يحيط بها الحزن للجرح الذي أصاب كرامة المسلمين في هذه المعركة، وهو يريد منا البحث عن أسباب أخرى لتلك النتيجة.

أجل، لم تجرح كرامة المسلمين في العهد النبوي في أي معركة مثلما جُرحت في تلك المعركة، هذا صحيح ولكن السبب في هذا لم يكن جبل أُحد، بل إن جبل أُحد حفظ المسلمين وحماهم عندما أحاط بهم الذهول والاضطراب، احتمى المسلمون بجبل أُحد وتخلصوا بذلك من هزيمة تامة، هذا من زاوية الأسباب.

لقد كان السبب الحقيقي للهزة المؤقتة التي أصابت المسلمين يكمن في انسحاب بعض المنافقين من الجيش منذ البداية وما أدى إليه هذا الانسحاب من أثر سيء في الروح المعنوية للمسلمين، ثم عدم قيام بعض الصحابة بإطاعة الأوامر بالمستوى اللائق بهم، وظهور ميل عندهم إلى جَمْع الغنائم حتى وإن كان هذا الميل مشروعًا.

ومهما يكن فلا شك أن هزة أصابت المسلمين يوم أُحد، ولكن رَبْطَ هذه الهزة بجبل أُحد لم يكن صحيحًا؛ لذا عبَّر الرسول ﷺ عن حبه لجبل أُحد لكي يزيل هذا الوهم من الأذهان».

[النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٦٦-٦٧].

ويقول د/ فيض الله: «كما وارى قَلِيب بدر جثث المشركين، ضَمَّ أُحُد في ثراه الندي، وتربته الداكنة، في سفحه الناعم ـ شهداء الدعوة، ممن هاجر، وممن آوى ونصر، ذلك الرعيل الأول في درب الدعوة والجهاد، الرعيل الصابر المحتسب، المضحي بالمال والنفس، في تجرد مطلق، ومثالية فريدة، وكان في طليعتهم حمزة عم النبي ﷺ وسيد الشهداء ﷺ، وخيثمة، وعمرو بن الجموح، والنعمان بن مالك، وسعد بن الربيع ﷺ.

تركت غزوة أُحُد، وشهداء أُحُد، رواسب في قلب النبي ﷺ وأحزانًا، وموجدة، كما تركت أكلة خيبر آثارها في صحته، فلما دنا الأجل، وأزف الترحل للحاق بالرفيق الأعلى، زار قتلى أُحُد، مودعًا الدنيا في أشخاصهم، ذاكرًا جهادهم، داعيًا لهم، واعظًا بهم جماعة المسلمين، من الصحابة، في خير القرون.

ففي الصحيح: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، أَنْ تَنَافَسُوهَا**».

قَالَ عُقْبَةُ ﷺ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ». [البخاري في المغازي (٤٠٤٢، ٤٠٨٥)، وفي الجنائز (١٣٤٤)، وفي المناقب (٣٥٩٦)، وفي الرقاق (٦٤٢٦، ٦٥٩٠)، ومسلم في الفضائل (٢٢٩٦)].

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٤٣].

١٨ ـ دقة شعور النبي ﷺ:

يقول الشيخ المدري: «عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن النبي ﷺ طَلَع له أُحدٌ فقال: «**هذا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**».

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلًا أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟ ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويفضي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإن كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلًا عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى». [غزوة أحد للمدري ٥٦].

١٩ ـ اختيار المواقف:

يقول د/ الخالدي: «لما خلا ميدان أحد من المشركين خشي الرسول ﷺ أن يتوجهوا إلى المدينة؛ ليحتلوها ويفسدوا فيها! وأصحابه على أرض المعركة، منهم الشهيد ومنهم الجريح ومنهم المصدوم!

وأحب أن يستطلع الأمر، ويعرف ماذا يريد المشركون أن يفعلوا، فانتدب لذلك سعد بن أبي وقاص ﷺ قال له: «**ائْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ، إِنْ رَكِبُوا الإِبِلَ وَجَنَّبُوا الخَيْلَ فَهُوَ الظَّعْنُ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَجَنَّبُوا الإِبِلَ فَهِيَ الغَارَةُ عَلَى المَدِينَةِ! وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ سَارُوا إِلَيْهَا لأَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لأُنَاجِزَنَّهُمْ**».

قام سعد ﷺ مسرعًا منفِّذًا ما كلَّفه به رسول الله ﷺ، ولحق وحده بخيل المشركين المنسحبين، وراقبهم بحكمة وفطنة، وكان حريصًا على أن يراهم ويسمع ما يقولون، على أن لا يروه! ولذلك كان يجيد الاختفاء مع الاقتراب! والجمع بين الاقتراب والاختفاء فنٌّ لا يتقنه كثير من الناس!

قطعوا مسافة طويلة، وسعدٌ ﷺ خلفهم يعدو على قدميه، وهو المتمتع باللياقة البدنية العالية، التي تمكنه من الجري لمسافات طويلة، وقد مر معنا أنه ذهب إلى بدر وعاد منها إلى المدينة مشيًا على قدميه!

وقف المشركون في (العقيق) يتشاورون في الخطوة التالية: هل يُغِيرون على المدينة أم يعودون إلى مكة؟ ووقف سعد ﷺ المتخفي قريبًا منهم، بحيث يسمعهم وهم يتكلمون، وهم لا يرونه!

أشار أحدهم عليهم بركوب الخيل والإغارة على المدينة!

ولكن صفوان بن أمية رد هذا الرأي، وقال لهم: **قَدْ أَصَبْتُمْ القَوْمَ، وَأَوْقَعْتُمْ فِيهِمْ القَتْلَى وَالجَرْحَى، وَأَرَى أَنْ تنْصَرِفُوا إِلَى مَكَّةَ، فَلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ كَالُّونَ مُتْعَبُونَ، وَاكْتَفُوا بِهَذَا الظَّفَرِ الَّذِي حَقَّقْتُمُوهُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَغَرْتُمْ عَلَى المَدِينَةِ فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ مَا يَغْشَاكُمْ! وَيَوْمَ بَدْرٍ قَدْ وَلَّيْتُمْ وَانْتَصَرُوا عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوكُمْ بَعْدَمَا ظَفَرُوا بِكُمْ، فَافْعَلُوا بِهِمْ مَا فَعَلُوا بِكُمْ!**

استجابوا لرأي صفوان بن أمية، وقرروا العودة إلى مكة، فركبوا الإبل، وجَنَّبوا الخيل، وانصرفوا إلى مكة!

«**إن سعدًا لمجرب**»: ورجع سعد ﷺ إلى رسول الله ﷺ؛ ليقدِّم له تقريره، وكان منكسرًا متأثرًا.

ولما اقترب من المسلمين صار يمشي متمهلًا، حتى وصل إلى النبي ﷺ، ثم قال له: يَا رَسُولَ اللهِ، لقد توجه القومُ إِلَى مَكَّةَ، امْتَطَوْا الإِبِلَ، وَجَنَّبُوا الخَيْلَ!

ورأى رسول الله ﷺ آثار الانكسار والحزن على وجه سعد ﷺ، فقال له: «**مَا لِي رَأَيْتُك مُنْكَسِرًا؟**»، قَالَ سعد ﷺ: **يَا رَسُولَ الله، كَرِهْت أَنْ آتِيَ المُسْلِمِينَ فَرِحًا بِقُفُولِهِمْ إِلَى بِلادِهِمْ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ سَعْدًا لَمُجَرِّبٌ**». [الواقدي١/ ٢٩٨-٢٩٩].

وعن سعد ﷺ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَسْتَخْبِرُ لَهُ خَبَرَ قَوْمٍ، فَذَهَبْتُ وَأَنَا أَسْعَى حَتَّى صِرْتُ إِلَى القَوْمِ، ثُمَّ جِئْتُ وَأَنَا أَمْشِي عَلَى هَيْئَتِي حَتَّى صِرْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**ذَهَبْتَ شَدِيدًا، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى هَيْئَتِكَ؟**» ـ أَوْ كَمَا قَالَ ـ فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَسْعَى فَيَظُنَّ بِي القَوْمُ**

أَنِّي قَدْ فَرَقْتُ (خِفْتُ)، فَقَالَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ سَعْدًا لَمُجَرِّبٌ».

[مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢١٩ كتاب المناقب (١٤٨٥٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار وإسناده حسن].

إن مجيء سعد ﷺ لرسول الله ﷺ حزينًا منكسرًا بسبب انسحاب المشركين، يدل على شخصيته المجاهدة، وهمته العالية، ورغبته في قتال المشركين والقضاء عليهم؛ لذلك لم يفرح بانسحاب المشركين وتخليص المسلمين منهم، وكان يتمنى لو قاتلهم المسلمون، وانتقموا منهم، وأوقعوا فيهم القتلى والجرحى! بينما يفرح كثيرون بانسحاب الأعداء، وإراحة المسلمين من خطرهم، فالذي يُفرح الآخرين من المجاهدين يُحزن سعدًا المجاهد ﷺ.

ومن عِزة سعد ﷺ وشجاعته أنه لا يريد أن يُؤخذ عليه مأخذ ذُل، أو يُظن به ظن الجبن والخوف، فلما كلفه رسول الله ﷺ بمتابعة أخبار جيش المشركين ذهب خلفهم مسرعًا حذرًا، لكنه عندما عاد إلى المسلمين، ولم يَجر مسرعًا، وإنما كان يمشي على هينته وتمهله! فلماذا لم يسرع؟

إنه خشي أن يراه المسلمون عائدًا وهو يجري، فيظنوا أنه خائف هارب!

وهو لا يريد أن يُظن به هذا الظن!

نفسه الأبية العزيزة تأبى اتهامها بالجبن والخوف والفَرَق؛ لأنها نفسٌ مجاهدة شجاعة، وهو حساس تجاه هذا الأمر، وحريص على أن يَظهر بالمظهر الجهادي الكريم؛ ولذلك جاء يمشي على مَهْلِه، رابطَ الجأش، ثابتَ القلب!

وأُعجب رسول الله ﷺ بموقفه، وبحسن تعليله لتصرفه، فأعطاه شهادة عزيزة، بأنه إنسان مُجَرِّبٌ، حيث قال: «**إِنَّ سَعْدًا لَمُجَرِّبٌ**».

إنه موقف عظيم يدعو إلى الفخر، وحقَّ لسعد ﷺ أن يفخر بهذه الشهادة العالية له من رسول الله ﷺ.

وهو ﷺ مُجَرِّبٌ ذكي فطن، جَرَّب الحياة، وعرف ما يناسبه من مظاهرها، واختار المواقف الرجولية الجهادية التي تتفق مع طبيعته الجادة». [سعد ﷺ للخالدي ١٤٩-١٥٢].

٢٠ ـ تحمل الصعاب في سبيل الغاية:

ويقول أ/ عبَّاد: «لم يعرف التاريخ قوة، وبطولة، وشجاعة، وكفاءة عسكرية، وقيادة قوية ـ كقيادة النبي ﷺ في ملحمة أحد، فالنبي ﷺ بقي في أفراد من جنده يتابع القتال ويدير المعركة حتى كف العدو يده، وبالرغم مما أصابه من إصابات تجعل الأبطال الأفذاذ يفرون أو يعجزون ـ نراه ﷺ في غاية اليقظة في إدارة الأمور، فيرسل من يستكشف له جيش المشركين، ويعلن عن تصميمه على مواصلة المعركة حتى النهاية، ثم يغسل آثار ما أصابه من المشركين بعملية خاطفة هي عملية (حمراء الأسد) التي أعادت

إلى الجيش الإسلامي روحه المعنوية العالية، وأعادت إلى المسلمين هيبتهم، وأعادت قريشًا إلى صوابها وقذفت في قلوب رجالها الرعب.

ولو علمنا أن عُمْرَ النبي ﷺ يوم أُحد كان خمسة وخمسين عامًا، ولو استعرضنا الجهد الذي بذله ﷺ أيام الجمعة، السبت، الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، من شوال لرأينا عجبًا، فأي جسم هذا الجسم؟ وأي عقل هذا العقل؟ وأي قوة تلك القوة؟ إنه لا تعليل لاستمرار النبي ﷺ على وتيرة واحدة دون عجز أو وهن أو ضعف، إلا أنها الرسالة عن الله رب العالمين، وإلا أنه صُنع الله رسوله على عينه، كما كان النبي ﷺ صاحب قوة بدنية عالية.

فقد روى أبو داود عن سعيد بن جبير: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ بِالبَطْحَاءِ فَأَتَى عَلَيْهِ يَزِيدُ بنُ رُكَانَةَ بنُ يَزِيدَ ـ وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا شَدِيدًا ـ وَمَعَهُ أَعْنُزٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! هَل لَكَ أَنْ تُصَارِعَنِي؟ فَقَالَ: «**مَا تَسْبِقُنِي؟**» فَقَالَ: شَاةٌ مِنْ غَنَمٍ، فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقَالَ رُكَانَةُ: فَهَل لَكَ فِي العَوْدَةِ؟ فَقَالَ: «**مَا تَسْبِقُنِي؟**»، قَالَ: أُخْرَى، ذَكَرَ ذَلِكَ مِرَارًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالله مَا وَضَعَ أَحَدٌ جَنْبِي إِلَى الأَرْضِ، وَمَا أَنْتَ بِالَّذِي تَصْرَعُنِي، فَأَسْلَمَ، وَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ غَنَمَهُ».

[قلت: رواه أبو داود في المراسيل، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٨ باب ما جاء في المصارعة، وقال ابن كثير: وقد روى أبو بكر الشافعي بإسناد جيد، ثم ذكره. البداية والنهاية ٣/ ٢٥٥ ط تح التركي، وقال: الأثر ذكره الحافظ في الإصابة ٦/ ٦٥٦. (غريب)]. [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٠٢-٢٠٣].

٢١ ـ رحمة القيادة بالجند:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن القائد الذي يسير وراء الجيش، ويقدم روحه بين يديه ويَقْدُمُ معه على مواقع الردى غير هَيَّاب ولا وَجِل، هو القائد الرحيم الذي يحمي الجُنْد من ورائه بأن يحنو عليهم كما يحنو الأب على أبنائه، فإذا قدمهم للاستشهاد فلمقصد أسمى، يقدِّم نفسه فيه أمامهم.

وليس القائد المظفر هو الذي يقدم جيشه إلى الميدان، كما يقدم أدوات الحرب، ومعدات القتال، من غير قلب يرحم، وينسى أن الجيوش قلوب تقدم، وأرواح تتقدم فداء للهدف السامي والمعنى الإنساني العالي الذي تقاتل من أجله، وتخوض له مشتجر السيوف، وتلقى بالحتوف نصرًا له، وتأييدًا لكلمة الحق، إن هذا النوع من القواد الجامدين الذين يحسبون الحرب تخطيطًا وليست رحمة، أو تلابسها رحمة لا ينتصر، وإن انتصر مرة، لا يعاوده النصر مرة أخرى؛ لأنه لا يجد جندًا ينصرونه، ولقد رأينا ممن يحسبون أنفسهم قواد الحرب من يرى صرعى جيشه في الصحراء، ولحومهم تنهشها ذئابها، ويقول غير حزين: **هكذا الحرب**؛ ولذلك توالت هزائمه.

ولقد كان بونابرت قائدًا مظفرًا حتى عاد إلى فرنسا، وترك جنده في روسيا يأكلهم الثلج، وقد أذاقهم لباس الجوع، فكان ذلك مفتاح هزيمته، وما انتصر من بعد ذلك انتصارًا حاسمًا.

وإن محمدًا ﷺ كان المثل السامي لرحمة القائد بجنده، كأنهم قطعٌ من نفسه، ولقد زكى الله ﷻ هذه الرحمة المحمدية النبوية، فقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد بدت رحمة النبي ﷺ بجنده في أُحد، وعقب الجروح التي أصابت الجيش الإسلامي، فما وجَّه لومًا لأحد، وما جال بخاطره أن يُحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت، بل كان كل همه في الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه، وأن يقفوا، ولا يخروا صرعى أمام أعدائهم، بل ارتقى بهم إلى الهضبة، وأعطى الراية من يحملها بحقها، وناضل، وقاوم، حتى أيأس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين، بل خافوا منهم، وأنهوا القتال وإن لم يكونوا مدحورين، خشية أن يندحروا، إذ رأوا جند رسول الله ﷺ قد اشتد بأسهم في القتال مع هذه الجراح التي جُرحوها، ويئس المشركون وانصرفوا.

وعفا عنهم؛ ليستبقي نخوتهم، وبأسهم لما يأتي، وإن لم يكن ما وقع لا يسر، بل كان يضر، ولم يكتف ﷺ بالعفو، بل استغفر لهم بأمر ربه.

ولعل شوراهم هي التي جعلتهم يواجهون المشركين، وقد كانوا بمنجاة عن ذلك، لو أخذوا برأي الرسول ﷺ، ولكن الشورى لم تكن سبب الجراح، إنما عصيان القائد، والخروج عما رسم من نظام كان هو السبب المباشر؛ ولذلك أمره الله ﷻ أن يستمر في الشورى، فخطأ الشورى دائمًا إلى صواب؛ لأنه يقوي إرادة الأمة، وصواب الاستبداد دائمًا إلى خطأ؛ لأنه يُضعف إرادة الأمة، وضعف الإرادة يضعف العزيمة ويفسد النفس، وذلك في ذاته خطأ.

ولقد أخذت الرحمة رسول الله ﷺ بالشهداء من الصحابة، فأمر بأن يُدفنوا بدلًا من أن يرسلوا إلى أهليهم، ومن أخذه أهله رده إلى الموطن الذي استشهد فيه؛ وذلك لكيلا تتبعثر أبدانهم الطاهرة، ولكيلا تثير رؤية ذويهم لهم ألمًا وحزنًا، ولكيلا يتصايح أهلوهم بالندب والنواح، فكانت رحمة الله تعالى بهم أن يُدفنوا حيث هم؛ ليعرف الناس فضلهم، ولقد كان رسول الله ﷺ من بعد يزور مصارعهم، وسلك ذلك أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، رضي الله عنهم جميعًا، وعلي ﷺ كان يكرم ذرية أهل بدر وأهل أُحد، فيزيد في الصلاة عليهم تكبيرات في صلاة جنازتهم.

ولقد كان رسول الله ﷺ يدفن الشهداء، ويجمع في القبر أكثر من واحد، ويختار مَنْ كانوا ذوي صحبة بينهم، فيدفنهم في قبر واحد، وكان يقدم في الدفن الأقرأ فالأقرأ، وكلهم شهداء ذوو فضل عظيم ومقام كريم في الإسلام.

وقد كان ﷺ لا يمنع أن يبكي أهل الشهيد من بكاء عليه حزنًا، وإن كان قد فاز بالشهادة، وكان يقول ﷺ: «**ابْكِينَ وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنَ العَيْنِ وَالقَلبِ فَمِنَ اللهِ ﷻ وَمِنَ الرَّحْمَةِ، وَمَا كَانَ مِنَ اليَدِ وَاللِّسَانِ فَمِنَ الشَّيْطَانِ**».

[مسند أحمد عن ابن عباس ﭫ (٢١٢٧، ٣١٠٣)، وقال عنها الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وكان يبكي بكاء شديدًا على عمه حمزة ﷺ أسد الله تعالى، حتى إنه رأى نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال ﷺ حزينًا باكيًا: «**وَلَكِنْ حَمْزَةُ لَا بَوَاكِيَ لَهُ**».

ومن رحمته ﷺ بأهل الميت أنه منع السيدة العظيمة عمته صفية ﭫ من أن ترى أخاها حمزة ﷺ مقتولًا، وقد عبثت العابثات من نساء المشركين بجثمانه الطاهر، ومثَّلوا به.

ولقد دَفن رسول الله ﷺ عمه سيد الشهداء حمزة ﷺ مع ابن أخته عبد الله بن جحش ﷺ، وقد مُثل به، كما مُثل بخاله حمزة.

وهكذا كان النبي ﷺ القائد الرحيم يعيش بعد الجراح مع الأسر المجروحة يواسيها، ولكن مواساة النبوة، والحقيقة أن قتلاهم شهداء، وأنهم أحياء يُرزقون، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

وأنهم قد نالوا خير الحسنيين، وأنهم يتمنون لو يعودون ليقتلوا في سبيل الله شهداء كما قُتلوا، ولكن كتب الله أن الذين يموتون لا يرجعون، ولكن يُبعثون في يوم الميقات المعلوم».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٢١-٧٢٣].

٢٢ ـ حرص القيادة على رفع الروح المعنوية للأفراد:

يقول أ/ فتح الباب: «ويخرج محمد رسول الله ﷺ من بيته، ويعطي سيفه لابنته فاطمة الزهراء ﭫ فتغسله مما علق به من دماء، ويتوجه القائد العظيم ﷺ إلى المسجد، ويجتمع حوله المسلمون وقد تشبثت به عيونهم وقلوبهم تنتظر الكلمة الحاسمة في الموقف العصيب، فماذا يقول رسول الله ﷺ فيما كان وما سوف يكون؟

ولأن الإسلام دين الحياة، ولا حياة مع اليأس؛ ولأنه دين القوة، ولا قوة بغير صمود في مواجهة المحن.

ولأنه دين التقدم، ولا تقدم إلا باطراح الماضي بعد استخلاص العبرة منه والإفادة من التجارب لبناء رصيد يُنتفع به في المستقبل.

ولأنه دين الصبر والمقاومة، ولا مقاومة بغير تربية للنفس على قوة التحمل.

ولأن الإسلام دين الكفاح الدائب بلا هوادة في محاربة العدو؛ ولأن الإسلام دين الحق والإيمان الثابت، فلقد كانت كلمة القائد العظيم ﷺ في هذا الموقف الجلل أن أصدر قرارًا باستئناف القتال ومطاردة العدو.

فها هو الإقدام يغمر قلوب المهاجرين والأنصار، وها هي يثرب قلعة مضيئة لم تدنسها قدم مشرك، وها هم أولاء الأعداء يعودون أدراجهم إلى مكة لم يجنوا شيئًا إلا الثأر لقتلاهم في بدر، ولكن المؤمنين أقوى منهم، فما زال الإيمان بالله ﷻ في صدورهم لم يتزعزع، وما زال رسول الله ﷺ في مقدمتهم يحمل المشعل، وما زالت السيوف في أيديهم ماضية لم تفل.

وترتفع الروح المعنوية، ويعود كل رجل مسلم أقوى من عشرة، بل مائة من القوم الضالين، ويندفع الفرسان إلى الصحراء ولما يمض غير نهار وليلة على أحد، يتعقبون جيش الباطل.

ويكون أمر الرسول ﷺ ألا يخرج إلى الجهاد إلا من اشترك في الغزوة، فما يجدر بالمسلم أن يخشى عدوًّا من أعداء الله ﷻ، وما ينبغي للحق أن يستسلم للباطل مهما كان شأنه.

ويملأ الهلع فؤاد أبي سفيان ـ زعيم قريش ـ إذ يقع في رَوْعه أن المسلمين قد عادوا إلى القتال بعد إمدادهم بجيش كثيف من المدينة جاء يطلب الموت أو الثأر، ويتقدم محمد ﷺ على رأس جيشه، ويؤكد مخاوف قائد الشرك ما قاله معبد الخزاعي ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ حين التقى به».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٠].

وهكذا وجدنا «المسلمين قد دفنوا موجدتهم في أفئدتهم، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حل بهم، وكان تكاثر خصومهم حولهم سببًا في أن يقاوموا عوامل الخور، وأن يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين، على نحو ما قال الشاعر:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

[فقه السيرة للغزالي ٢٨٢].

٢٣ ـ النفوس المؤمنة ترتفع فوق الألم:

يقول أ/ عبَّاد: «كم يومًا تحتاج إليها هذه الجراحات حتى تندمل؟ وكم يومًا تكفي لتلتئم جراح النفوس وتجف دموع العيون وتنفض مآتم الشهداء، وتسكن أعين اليتامى المنطلقة باحثة عن آباء غَيَّبتهم القبور؟ ومتى يستطيع المسلمون أن يخوضوا معركة ثانية بعد أحد؟ هل كما واعدتهم قريش بعد عام؟ ولكن لم يمض من هذا العام إلا ليلة واحدة قضاها المجاهدون في دورهم يداوون جراحهم، وفي البيوت مآتم ودموع وآلام، ولكن كان في النفوس إيمان يرتفع فوق الألم ويستعصي على كيد المنافقين والمشركين.

وهذا هو المطلوب من الفئة المؤمنة: الصبر والثبات على أهوال المحن، فالنبي ﷺ بعد مرور خمس عشرة ساعة يعلن الخروج للحرب، ومع ذلك ما ألانت الجراح قناتهم، ولم يتخلف جندي واحد عن تلبية الأمر النبوي، بل كانت صفة الالتزام والطاعة والبيعة التي أعطاها كل منهم لربه ولنبيه هي السمة الأساسية الواضحة في قلب هذه المحنة.

وهذه صورة الإيمان الصلب الذي لا يعرف الهرب أو الاعتذار، وإنما يرتفع فوق مستوى الألم إلى مستوى المسؤولية ولا يرجون بها إلا وجه الله تعالى». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٧٩-١٨٠].

٢٤ ـ النصر مع الصبر والطاعة:

يقول د/ البوطي: «وإذا تأملنا فيما أقدم عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه فَوْرَ عودتهم إلى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين ـ اتضح لنا درس معركة أحد اتضاحًا كاملًا، وتبين لنا كل من نتائجها: السلبية والإيجابية، وظهر لنا بما لا يدع مجالًا للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر وإطاعة أوامر القائد الصالح واستهدف القصد الديني المجرد.

فقد رأينا أن النبي ﷺ لم يكد يؤذِّن في الناس للخروج مرة أخرى لطلب العدو، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس، من بعد ما أصابهم القرح، وأنهكتهم الجروح والآلام، ولم يسترح أحد منهم بعد في بيته أو يفرغ للنظر في حاله وجسمه، وانطلقوا خلف رسول الله ﷺ يبتغون المشركين الذين لم تخمد بعد في رؤوسهم جذوة النشوة بالنصر، ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في غنيمة أو غرض دنيوي، وإنما هو التطلع إلى النصر أو الاستشهاد في سبيل الله، وهم يسوقون بين يدي ذلك جراحاتهم الدامية وقروحهم المؤلمة.

فما الذي كان من نتيجة ذلك؟

لا نشوة الظفر ولا لذة الانتصار ربطت على قلوب المشركين ليتمموا نصرهم والتغلب على خصومهم، ولا وَقْع الهزيمة وآلام الجروح الكثيفة في المسلمين حال شيء من ذلك دون إقدامهم وانتصارهم.

وكيف كان السبيل؟ لقد كان السبيل إلى ذلك آية إلهية خارقة لتتمم الدرس والموعظة للمسلمين: وقع الرعب فجأة في قلوب المشركين، وتصوروا كما أخبرهم صاحبهم الذي كان قد لمح المسلمين عن بعد، أن محمدًا وأصحابه قد جاؤوا هذه المرة ومعهم الموت المؤكد لينثروه فيما بينهم، فارتدوا على أعقابهم بعد أن كانوا متجهين صوب المدينة، وانطلقوا سراعًا إلى مكة لا يلوون على شيء.

أما كيف داخلهم هذا الرعب الغريب من المسلمين، وهم الذين كسروا شوكتهم ووضعوا السيف فيهم قبل ساعات فقط من الزمن، فمردُّ ذلك إلى الإرادة الإلهية التي جعلت من هذه الموقعة كلها درسًا بليغًا للمسلمين جمع بين كلا مظهريه الإيجابي والسلبي في آن واحد.

وفي هذا الختام الأخير المتمم لموعظة أحد نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]. [فقه السيرة للبوطي ١٩٦].

٢٥ ـ لا نكسة بعد الآن:

يقول أ/ فتح الباب: «وثمة قيمة عليا ثبتتها النكسة في أحد كانت سلاحًا لما بعد أحد من مواقع، تلك هي قيمة الوحدة في الصف تدعم الوحدة في الهدف، وتجعل أهلها أكثر قدرة على إصابته، فلا تخيب لهم ضربة أبدًا، فلا خروج بعد اليوم على رأي الجماعة، ولا عصيان لأمر القائد إذ يحدد المسؤوليات، ولا تهافت على الغنائم، ومن ثم فلا نكسة بعد الآن، ولا هزيمة للأحرار، بل زحف دائم إلى الأمام في كل وقت وكل مكان؛ حتى يسقط دعاة الباطل وحماة الطاغوت وأرباب العدوان.

لقد استمد المسلمون من محنتهم تلك قوة وصلابة في النضال، وازدادوا بها ثباتًا ومُضاء وإباء وإيمانًا يرتفع بالنفس الإنسانية فوق كل شك في امتلاك النصر النهائي بإذن الله ﷻ.

وكانت الدعوة الإسلامية حين وقعت غزوة أحد مُحاصَرة بالمشركين، ولم يزل المستقبل يحمل في طياته مخاطر على الدعوة من هؤلاء ومن غيرهم من القوة المستبدة خارج الجزيرة العربية، وشاء الله أن يمهد بغزوة أحد لما بعدها من مغازي وفتوحات تفتح السبيل لكلمة الحق في العالم كله.

وكان هذا التمهيد يتمثل في تلقين المؤمنين درسًا لا يُنسى في الصبر والمقاومة وتفادي الأخطاء حتى لا تتكرر النكسة أبدًا.

كانت المواقع المرتقبة أشد هولًا من موقعة أحد؛ لأنها معارك مصيرية بالنسبة للمسلمين وأعدائهم على السواء، ومن ثَمَّ كانت تتطلب دروسًا في الثبات على رغم الأحداث العاصفة، وتقتضي تجارب في حتمية النضال حتى الموت دفاعًا عن العقيدة، وتمكينًا لمبادئها، ونشرًا لدعوتها: دعوة الحرية والأمن والعزة والسلام، فمهما تكن تلك الدروس والتجارب مريرة فهي دواء لا مفر منه لاستئصال الداء.

لقد كان انتصار قريش في أحد نصرًا مؤقتًا، مثله كمثل السراب أو الشهب البراقة التي سرعان ما تتهاوى، ولقد ملأ الزهو قريشًا إذ رأت المسلمين ينسحبون وقد أنهكتهم الموقعة، وأثخنتهم الجراح، وأصيب بينهم رسول الله ﷺ فعاد يتحامل على بعض أصحابه، والمسلمون من حوله يتحاملون على أنفسهم من شدة الجهد والإعياء.

ولكن العبرة بالنصر الأخير، ولقد تم هذا النصر موقعة بعد موقعة بفضل الإيمان والثقة والمحبة والصبر والمقاومة والفداء». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٢ - ٨٤].

٢٦ ـ في تأخير النصر عبرة:

يقول الشيخ المدري: «إن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس وكسرًا لشموخها وجماحها؛ لأن النفس إذا أنعم عليها جمحت وشمخت إلا من رحم الله، فلو أن الرسول ﷺ انتصر في كل معركة، وانتصر في كل موقف هو وأصحابه لدخل بعض الصحابة شيء من العجب والتيه، وشيء من الزهو، لكن أراد الله أن يربيهم بالمعارك، مرة نصر ومرة هزيمة، وفي الخاتمة نصر لا هزيمة بعده للإسلام؛ لذلك لما أتت في معركة حنين قال بعض الصحابة: **لن نغلب اليوم من قلة**، فانهزموا في أول المعركة ثم انتصروا بعد أن تلقوا تأديبًا، وأنت إذا بقي جسمك معافى بلا أمراض ولا ابتلاءات دخلك من العجب ما الله به عليم، والله ﷻ يعرف النفوس فيداويها.

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

ربما يكون في صحة جسمك المرض، وفي صحة قلبك الفقر والابتلاء، فالله ﷻ أعلم».

[غزوة أحد للمدري ٧٠].

٢٧ ـ طريقة التعامل مع المنافقين:

وفي عدم سماح الرسول ﷺ لغير الذين شاركوا في أحد، وفي رده خروج ابن سلول معه يقول د/ الغضبان: «وهكذا يتجلى الخط التربوي الحاسم في طريقة التعامل مع المنافقين، فصحيح أنهم لم تُنفذ بهم عقوبة الإعدام على الخيانة العظمى التي أقدموا عليها في أحد، وفروا من المعركة، وأعلنوا ولاءهم لليهود، لكن نُفِّذَتْ فيهم عقوبة الفصل من الجسم الإسلامي، ولابد لكل فرد منهم أن يُعاد النظر به بشكل شخصي بحيث يصبح مؤهلًا للانضمام للصف الإسلامي أو غير مؤهل لذلك».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٠٠].

٢٨ ـ أهمية الإرادة القوية لأفراد الصف:

يقول أ/ فتح الباب: «كانت هزيمة المسلمين في أحد وما أعقبها ـ برغم مرارتها ـ من انتصارات متتابعة لهم انتهت بسقوط دولة الطغيان في مكة ـ درسًا تاريخيًّا للبشرية كلها، وللمناضلين في سبيل الحق بصفة خاصة، فقد أثبت محمد ﷺ وأصحابه أن الحرب المصيرية ليست معركة واحدة، بل سلسلة متصلة الحلقات من الصراع، وإن كسب العدو إحدى المعارك لا يعني بالضرورة انتصاره النهائي، وإنما يكون هذا الانتصار إذا استطاع أن يفرض إرادته ويجبر خصمه على الاستسلام والرضوخ لشروطه.

ولقد انتصرت قريش في تلك المعركة، ولكنها عجزت عن جني ثمار عدوانها، وفشلت في تحقيق هدفها الأساسي، وهو القضاء على الدعوة الإسلامية.

وأثبتت هذه الدعوة أن النصر الأخير للإرادة الأقوى، وأن هذه الإرادة ملك المكافحين والصامدين مهما قلوا عددًا وعتادًا، وأنها وليدة الإيمان الحق، والإسلام هو دين الحق وشريعة الثبات والإصرار وعقيدة الإرادة المنتصرة.

ولبث رأس الشرك في مكانه بالروحاء فريسة القلق والتردد، ثم استقر رأيه على إيثار أهون الشرين، ولجأ ـ كدأبه ـ إلى المكر والخداع، فلقن بعض الأعراب المسافرين إلى المدينة أن يقولوا للنبي ﷺ وأصحابه: إن قريشاً قد عبأت قواها وتهيأت للرجوع إلى المدينة بغية القضاء عليهم، ولم يكن لهذه المزاعم حين وصلت للنبي ﷺ أدنى أثر لديه، وظلت عزيمته صُلبة لا تلين.

وكان من الطبيعي أن تكون الغلبة في الصراع لأقوى الإرادتين، وكانت إرادة النبي ﷺ وأصحابه إرادة الحق والعزة، فلم يلبث المشركون أن استبد بهم الخوف واستكانوا في مواجهة ما أبداه المؤمنون من صمود وإصرار، فرجعوا يجرون أذيال الخيبة إلى مكة، هنالك قفل النبي ﷺ وجنوده عائدين إلى المدينة بعد أن حققوا غايتهم وأدركوا قصدهم، وأثبتوا أن الحق المؤيد بالقوة لن يغلبه غالب، وأن النصر من عند الله.

وكان مُقام النبي ﷺ وجنوده في حمراء الأسد ثلاثة أيام بلياليها، وفي هذه الغزوة نزلت الآيات الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٥، ٩٠ – ٩١].

٢٩ ـ الثقة والصمود:

يقول أ/ فتح الباب: «وبفضل هذا الإيمان الصامد والثقة بانتصار الحق استطاع الرسول ﷺ أن ينظم صفوف رجاله التي أوشكت على الاضطراب بعد الصدمة المفاجئة في أحد، وكان شعاره المعلن بينهم رفض الهزيمة، والإصرار على المقاومة، وأن يكون للحرب الأولوية والسبق على كل ما عداها من أمور؛ وليعبئ المسلمون كل جهودهم للمعركة دفاعًا عن حريتهم وعقيدتهم، وإنهم ليملكون الجرأة والقدرة على مجابهة الحقيقة متسلحين بالوعي والمسؤولية، مؤمنين بالقيم التي بثها القرآن الكريم في نفوسهم، فلا قلق، ولا تصدع، بل يقين ثابت بالحق وبالنصر.

إن الجبهة الإسلامية في خطر، والسبيل الوحيد لدرء هذا الخطر الداهم هو استمرار المقاومة، وأن المكاسب التي حققها الإسلام لأهله من إيمان وحرية وعدالة توشك أن تضيع، ويذهب هباء كل ما بُذل في سبيلها من جهود ما لم يُبذل مزيد من التضحيات للحفاظ عليها، وها هم اليهود والمشركون والمنافقون في المدينة يبدون فرحتهم بنكسة المسلمين، ويكشرون عن أنيابهم إعلانًا لعداوتهم بعد أن كانوا يتوارون قانعين خاضعين لسلطان محمد ﷺ وأصحابه». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٧].

٣٠ ـ ليس لمؤمن أن يستكين:

يقول أ/ فتح الباب: «وحزم النبي ﷺ أمره فأمر بالتجهز للقتال ولما يكد المسلمون يستريحون مما ألم بهم من هول الصدام في أحد، ذلك أنه ﷺ بما أوتي من بصيرة ملهمة نافذة، وما وُهب من عبقرية عسكرية كان يدرك أن حسن التوقيت من أهم عوامل الانتصار، وأن مفاجأة الخصم في مأمنه وقبل أن يتأهب للعدوان أفضل وسيلة لدحره.

ولا ريب أن قريشًا كانت في شُغل عن الإعداد للحرب بالانغماس في سكرة الانتصار الذي أحرزته في جولتها الثانية مع المسلمين، ولم يكن يجول في خلدهم أن المسلمين قادرون ـ بعد ما أصابهم ـ على استئناف القتال، بل كانت تتوقع أن تتصدع جبهتهم، وأن يمضي وقت طويل قبل أن يستردوا أنفاسهم». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٨].

٣١ ـ بث الحماس في النفوس:

يقول أ/ فتح الباب: «كذلك فإن رسول الله ﷺ كان يدرك أن خير وسيلة للقضاء على عوامل اليأس والاضطراب التي أسفرت عنها الهزيمة هو بث الحماس في النفوس، والدعوة للحرب التي لم يكن لها بديل، وأن الممارسة الفعلية العاجلة للجهاد هي الطريقة المثلى لإثارة هذا الحماس، أما مرور الوقت دون حرب فمن شأنه أن يُخفت صوت الجهاد، ويترك فراغًا يتزرع فيه جراثيم القنوط، وتضعف الروح المعنوية، ويضطرب حبل الإيمان.

كما أنه يزيد من غلواء المشركين واليهود واستهانة المنافقين بالمسلمين، فلا مفر من استرداد مكانة الإسلام بالقوة، فلا يفل السلاح إلا السلاح، وما يؤخذ بالقوة لا يسترد بغيرها».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٨-٨٩].

٣٢ ـ إصرار على المقاومة:

يقول أ/ فتح الباب: «ويتردد أبو سفيان بين الفرار وما يستجلبه من عار، وبين قبول التحدي وما قد يستتبعه من قضاء مبرم على دولة قريش، فيلجأ إلى الحيلة، ويلقن بعض الأعراب القاصدين إلى المدينة أن يخبروا محمدًا ﷺ وصحبه أن قريشًا قد اعتزمت العودة إلى القتال، ويبلغ ذلك النبي ﷺ

فيزداد إصرارًا على المقاومة، وتشتد عزيمته، ولا يضعف ولا يستكين، بل يظل مع المسلمين في موقعهم الذي نزلوا به من الصحراء صامدين متحدين مصممين على الجهاد ثلاثة أيام متتابعة حتى تيأس قريش وتخشى عقبى الاشتباك مع المسلمين، فتؤثر العودة إلى مكة، وحينذاك يعود المسلمون وقد استردوا كثيرًا من مكانتهم في نفوس الأحباب، وهيبتهم في نفوس الأعداء، وتمحى آثار الهزيمة، وتؤسي الجراح، وترقأ الدموع في الجفون.

ولا شك أن قوة الإيمان كانت الحافز الأكبر على مواصلة الكفاح، وكان التحام النبي ﷺ برجاله دافعًا إلى ثقتهم بأنفسهم وإدراكهم أن المعركة الفاصلة لم تكن في أحد، بل سيكون موقعها في مكة حيث يتم النصر للمؤمنين، وإنهم لقادرون على تحقيق ذلك النصر.

فلتدرج غزوة أحد في عداد الأحداث الماضية، ولتكن تجربة تضيء الطريق إلى المستقبل، وليبدأ المسلمون من جديد حتى يعوضهم الله ﷻ نصرًا قريبًا وهم أشد عزمًا، وأكثر تماسكًا وأمضى إرادة.

إن إرادة المؤمنين أقوى من إرادة المشركين؛ لأن يد الله مع جماعة المؤمنين، وهو مؤيدهم وناصرهم بقوة من لدنه؛ لأنهم جنوده وشيعته، وهو معهم طالما كانوا معه أملًا في القلوب وضياء للعقول وهدى في الصدور، وسوف يحيل هزيمتهم انتصارًا فلا حُزن على ما فات، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، ولقد صهرتهم نيران التجربة القاسية وأنضجتهم حقًّا، فلن يقعوا فيما كان من أخطاء.

تلك كانت المعاني التي انبلجت في صدور المسلمين، فأيقنوا أن أحدًا كانت اختبارًا يمحص النفوس، ويطهر القلوب، ويوجه البصائر إلى مواطن الخطأ ومواطن الصواب؛ حتى يصفو جوهر الإيمان، ويدرك الذين ظلموا أن لدى المؤمنين سلاحًا يفوق قوتهم وعتادهم، ويكفل لأصحابه النصر المبين، ولقد كان الرسول ﷺ حريصًا على تثبيت قيمة الإيمان بالله ﷻ في قلوب رجاله، وما يقوم عليه هذا الإيمان من رجاء يبدد اليأس، وخوف من الله يجعل صاحبه يستعذب الصعاب، ولا يبالي بالموت».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨١-٨٢].

٣٣ ـ جبن المشركين رغم انتصارهم:

يقول أ/ فتح الباب: «وشاهدَ جمعَ المسلمين في مسيرته عبر الصحراء معبدُ بن أبي معبد الخزاعي وهو في طريقه إلى مكة ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ وتلقفه في الطريق أبو سفيان وقد علم بحشد محمد ﷺ وأصحابه، فتوجس شرًّا، وخشي عاقبة القتال، وسأل معبدًا عن أخبارهم فقال: «**إن مُحَمَّدًا قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقًا، قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ، وَكُلُّهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ حَنَقًا، وَمِنْكُمْ لِلثَّأْرِ طَلَبًا**».

وكان الموقف عصيبًا، والاختيار صعبًا، فإما أن يعود أبو سفيان إلى الاشتباك فيخسر المعركة؛ لما بلغه من قوة المسلمين، ويذهب بذلك أثر انتصاره في أحد، ويصبح معرة بين العرب، وتكون الكلمة العليا في الجزيرة لمحمد ﷺ وأتباعه، وإما أن يتقاعس عن القتال فيلحقه من ذلك عار الجبن».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٩-٩٠].

٣٤ ـ الشدائد اختبار لصدق الانتماء:

يقول الشيخ عرجون: «والشدائد دائمًا هي مظاهر صدق الوفاء الذي لا يقف عند وحدة العقيدة، بل الوفاء الذي يتجاوز ذلك إلى وفاء الإخلاص ومودة العهود والمحافظة عليها، ولو لم تكن معها وحدة الدين.

وقصة معبد الخزاعي تمثل أكمل تمثيل هذا اللون من الوفاء، فمعبد بمجرد أنه خزاعي يعرف ما بين رسول الله ﷺ وبين قومه من عهود مودة، وأنهم عَيْبة (أي موضع سره وأمانته، كعَيْبَة الثياب التي يوضع فيها المتاع) رسول الله ﷺ وذوو صفقته، وأنهم لا يكتمونه شيئًا يبلغهم عن أعدائه، وقد زاد الإسلام عهد رسول الله ﷺ مع خزاعة قوة وثباتًا، تصرَّف إذ رأى رسول الله ﷺ بحمراء الأسد هذا التصرف النبيل في وفائه وصدق إخلاصه، فبدأ بمواساة النبي ﷺ فيما أصاب أصحابه في (أُحد) مواساة مودة ووفاء وإخلاص بكلمات معدودات، ولكنها تنطوي على كثير من معاني النبل والوفاء والإخلاص الحميم.

كان وفاء معبد الخزاعي عملاً إيجابيًّا خذل أعداء الإسلام: ولم يكتف معبد بهذه المواساة الوفية الصادقة، بل عمد إلى عمل إيجابي يدفع به عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه غائلة الكرَّة عليهم من هؤلاء الفجرة من المشركين، ويناصرهم بكل ما يستطيع من قول وعمل.

وكان معبد قد رأى المشركين بزعامة قائدهم أبي سفيان بن حرب قد أجمعوا الرجعة إلى محمد ﷺ وأصحابه ليفرغوا من القضاء على بقيتهم، فقام معبد مقامًا اشتدت فيه وطأته على المشركين وقائدهم فأرعبهم وأفزع قلوبهم، وأرهبهم بما صوره لهم من تأهب محمد ﷺ وأصحابه للكرة عليهم بما لم يكن يدخل في خيالهم، حتى ثناهم عن الرجعة إلى المجتمع المسلم في عقر داره، ولم يجد أبو سفيان حيلة يغطِّي بها ما أصابه من الفزع إلا أن يتشبث بركب يمر عليه من عبد القيس وهم يتيممون المدينة المنورة للميرة، فعاقدهم على أن يبلِّغوا محمدًا ﷺ أكذوبة من نسيج دهائه الذي لم يسعفه في هذا الموقف المتأزم في رسالة يبلغها رسول الله ﷺ ليصدَّه عن ملاحقتهم». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦٣٥-٦٣٦].

٣٥ ـ تخذيل العدو:

يقول د/ زيدان: «ولا بأس بأسلوب تخذيل العدو لحمله على عدم المضي في شره، وفي تنفيذ ما هو عازم عليه، وأن تستعين جماعة الدعاة وأميرهم بالقادرين على مهمة تخذيل العدو، كالذي قام بتخذيل أبي

سفيان وحَمْلِه على عدم الرجوع إلى المدينة، بعلم ورضا من رسول الله ﷺ، ويستحسن لهذه المهمة اختيار المخلصين للدعوة؛ غير المعروفين لدى المؤمنين مع اطمئنان العدو بهم، وبما يشيرونه عليهم، وهذا ما كان متحققًا في مَعْبد الخزاعي الذي أسلم ولم يعلم بإسلامه المسلمون ولا أبو سفيان؛ وأذن له النبي ﷺ بتخذيل أبي سفيان؛ وحَمْله على عدم الرجوع إلى المدينة». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٣٥].

ويقول د/ الحميدي: «ما جرى من معبد الخزاعي من تخذيل المشركين عن رسول الله ﷺ فيه عبرة عظيمة فقد قيَّضه الله تعالى ليقوم بدور مهم في نصر المسلمين حيث ضخَّم جيشهم في عين أبي سفيان وصده عن العودة إلى المدينة بأسلوب قوي مؤثر، ولقد صَدَّقه أبو سفيان لكونه ما يزال مشركًا.

وهكذا ينصر الله تعالى أولياءه بجنود كثيرة منها المعتدلون من الكفار الذين كانوا معجبين بسلوك المسلمين في السلم والحرب.

والحقيقة أن أبا سفيان وقومه كانوا مترددين في أمر العودة إلى المدينة، يدفعهم حب القضاء على الإسلام وأهله، ويَرْدَعُهم خشية الوقوع في الهزيمة والأسر على يد المسلمين، خصوصًا وأنهم يدركون بأن ما أصاب المسلمين لم يكن عن ضعف ولا جبن، وإنما هو بسبب خطأ ارتكبه بعض جنود الإسلام، وهم يعلمون جيدًا أن الأخطاء لا تتكرر غالبًا خاصة من المسلمين الذين جربوا تفوقهم في التخطيط الحربي وفي القتال في بدر وفي أول النهار يوم أحد؛ ولذلك ما أن حذرهم معبد الخزاعي من جيش المسلمين حتى غَلَّبوا جانب السلامة والحفاظ على النصر الذي توهموه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٥ –١٦].

٣٦ ـ الحرب النفسية لإرهاب أعداء الله:

يقول د/ الحميدي: «إن اهتمام النبي ﷺ بالخروج لملاحقة العدو بعد المعركة بيوم واحد مع ما به وبأصحابه من جراح بليغة يدل على بعد نظر وحكمة في وضع الخطط الحربية وإدراك عميق لأثر الحرب النفسية، فإن الهدف من خروجه إرهاب أعدائه من أهل مكة وجميع الأعداء المحيطين بالمدينة مَنْ قُرب أو بَعُد؛ وذلك لأن إصابة المسلمين في معركة أحد قد حطت من سمعتهم الحربية لدى قريش والقبائل الأخرى، وتعالت احتمالات الطمع بغزو المدينة، فأراد النبي ﷺ أن يُظهر للأعداء جميعًا أن إصابة أُحد لم تكن نتيجة ضعف في المسلمين ولا تخاذل، وإنما هي نتيجة خطأ حربي ارتكبه بعض الجنود، وقد عاد جنود الإسلام بقيادة نبيهم ﷺ إلى ملاحقة الجيش الذي أصابهم على ضخامته فكيف الحال بجيوش القبائل الصغيرة لو فكرت بغزو المدينة؟!

ولقد حدث ما فكَّر به النبي ﷺ وخطَّط لتفاديه، حيث إن جيش قريش قد ندموا على اكتفائهم بإصابة المسلمين وعدم قيامهم باستئصالهم، ففكروا بالعودة إلى المدينة واستئناف الحرب مرة أخرى كما جاء في هذه الروايات، لولا ما بلغهم من خروج النبي ﷺ بجيشه إلى حمراء الأسد لملاحقتهم، فعلموا بذلك أن قوة المسلمين ما تزال حية، وأن الجراح لم تكن عائقًا لهم عن الخروج.

إن أي فكر بشري يتصور موقف المسلمين آنذاك وقد أحاط بهم الأعداء من الداخل والخارج سيصيبه الهلع والرعب والخوف على مستقبل هذه الفئة المؤمنة، ولن يستطيع أي فرد مهما كان في قوته ودهائه أن يتحمل مسؤولية تلك الفئة المحاربة من كل جانب، أما الرسول ﷺ فإنه لم يَهِنْ في مواجهة تلك الظروف القاهرة، ولم تلن له قناة أمامها؛ لأنه مؤيد بنصر الله ﷻ، وقد وعده الله بإتمام هذا الأمر مهما تكالب عليه الأعداء، ولن يخلف الله ﷻ وعده، والرسول ﷺ على ثقة من أن الله تعالى سينجز له ما وعد، فلم يضعف أمام تلك الظروف القاسية، بل واجهها جميعًا بقوة وحزم، حيث قام بإرهاب أعدائه جميعًا من أهل المدينة ومن حولها والبعيدين منها حينما مضى يتعقب جيش الكفار حتى بلغ حمراء الأسد.

وقد قامت هذه الحملة بدورها المؤثر في إرهاب أعداء الإسلام من أهل المدينة ومن حولها، حيث عرفوا أنه ليس من السهل القضاء على المؤمنين، ولا تفريقهم عن رسول الله ﷺ وقد استجابوا لدعوته إلى الجهاد مع ما بهم من الجراح المؤلمة.

أما أثر هذه الحملة على كفار قريش فقد ظهر في تصرفات أبي سفيان قائد جيشهم حيث استأجر جماعة ليخذِّلوا رسول الله ﷺ عنه لما علم بخروجه كما جاء في هذا الخبر». [التاريخ الإسلامي للحميدي٦/ ١٣-١٤].

٣٧ ـ حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله:

يقول د/ الحميدي: «في غزوة حمراء الأسد مثل من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وسعيهم الجاد في تذليل الصعوبات التي تعوقهم عن الخروج، فمن ذلك خبر الأنصاري الأشهلي وأخيه اللذين خرجا مع شدة ما أصابهما من الجراح حتى كان أحدهما وهو جريح يحمل أخاه الذي كان أشد مصابًا منه، ولم يعتبر تلك الجراح مسوغًا للقعود، وعلى شاكلتهما كثير من الصحابة، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران]».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٥].

٣٨ ـ قصة حمراء الأسد تمثل لونًا من الشجاعة ورسوخ الإيمان:

يقول الشيخ عرجون: «هذه الروايات والأحاديث والوقائع التي وردت في قصة المسير إلى حمراء الأسد في عقبة أُحد مباشرة تمثل في إطارها الذي ذكرناه وصورتها التي رسمناها من واقع ما كان لونًا

من الشجاعة التي انطوت عليها عزيمة رسول الله ﷺ وعزائم أصحابه، وهم يقاسون آلام جراحاتهم ـ لم يعرفه التاريخ لغيرهم قط.

فملاحقة العدو وهو منصرف من المعركة، مزهو بانتصاره فيها، يوحي إليه من التصورات والظنون التي لابد أن يكون منها في نظر هذا العدو أن جيش المسلمين لا يزال سليمًا في قوته، أو أنه قد جاءه مددٌ ماديٌّ من الرجال والأسلحة، فتكون تلك التصورات والظنون مدخلًا للرعب إلى قلوب أولئك الأعداء، ولا سيما أنَّ هذه الملاحقة كانت من الذين أصابتهم القروح والجراحات، وهم لا يزالون يكمدون جراحاتهم ويعالجون قروحهم، ويكتمون آلامهم.

وقد حظر رسول الله ﷺ على كل من لم يشهد (أُحدًا) أن يخرج مع الذاهبين لملاحقة العدو وإرهابه وإشعاره بقوة جيش المسلمين الذي كان إلى الأمس يواقفهم في ميدان المعركة، وأن ما نالوه منه من الجراحات لم يبلغ أن يكون انتصارًا يقعد هذا الجيش المسلم عن ملاحقتهم للالتحام بهم كرة أخرى، قبل أن يتركوهم منصرفين بما يعتقدونه نصرًا لهم؛ لأنه لابد أن يكون من بين تلك الوجوه التي واقفتهم في ميدان المعركة بالأمس وجوهًا تلاحقهم لمواقفتهم كرَّة أخرى.

وذلك مما يفتُّ في أعضادهم ويزعزع عزائمهم، ويوحي إليهم أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا مما توهمونه نصرًا لهم؛ لأن قوة محمد ﷺ وأصحابه ما زالت سليمة تستطيع أن تقف في وجههم محاربة منتصرة كما انتصرت في (بدر).

وقد مهَّد رسول الله ﷺ لذلك بإرسال علي ﷺ ليعرف وِجهة المشركين في سيرهم، وأقسم ﷺ ليناجزنهم إن ساروا إلى المدينة، ولم ير رسول الله ﷺ أن يقعد عن ملاحقة أعدائه ليستريح من آلام جراحاته ويريح أصحابه ليداووا قروحهم، بل أمر ﷺ بملاحقة القوم وهم منصرفون إلى مكة، وأرسل بين يديه الرسل ليعرفوا له أخبار القوم، ومضى في أثرهم ومعه أصحابه في جراحاتهم وآلامهم التي تمثلها أروع تمثيل قصة الأخوين الأشهليين». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦٣٤-٦٣٥].

٣٩ ـ عتاب المخطئ برقة ورأفة أنفع له:

يقول د/ فيض الله: «سَرَت في الآيات المُعَقِّبَة على غزوة أُحُد، مسحة من العتاب الرقيق الرفيق، أشارت إلى الأحداث، ووَجَّهت إلى الدروس التي ينبغي أن يُفيد منها المخطئ في حياته.

١ـ فعتاب المخطئين هادئ رفيق، لا يُشْعِر بالقنوط، ولا ينزع الأمل، ولا يخدش الطمأنينة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

أما عتاب المنتصرين، يوم بدر، فقد بدت فيه الشِّدة اللاذعة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[الأنفال].

وفي هذا حكمة عملية، وتربية قرآنية، يَحسُن أن يلتزمها أهل التربية، والقائمون على التوجيه.

٢ ـ إنه ليس المؤمن الحصيف الذي لا يخطئ، بل هو الذي ينتفع بخطيئته، ويَعتَبر بها، وليست الخطيئة بالتي تَهُدُّ الكيان، وتدك البنيان، وتَذَر الديار بلاقع، فكل بني آدم خَطَّاء، وسنة الله أن يُعَاقَب المخطئ، على أن تكون العاقبة له، ما دام مؤمنًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[آل عمران].

وكفى بهذا طَمأنة ورتبًا لينًا، ورد اعتبار، وثقة بالله.

٣ ـ وهذه الجروح والقروح التي مَسَّت المؤمنين، قد مَسَّ مثلُها الكافرين يوم بدر، ويوم أُحُد، حين كان النصر أولًا للمسلمين، فلما طمعوا في الغنائم والأسلاب هبطوا عن مستوى الجهاد المتجرِّد المحتسب، الذي لا مطمع فيه ولا غرض، ودارت الدائرة عليهم، لكن في هذا ـ مع تطبيق سنن الله ـ حكمة عظيمة، وهي مداولة النصر والحكم والسلطان بين الناس؛ لِيُتَبيَّن المؤمن من المنافق، والمُلتَزِم لمنهج الإسلام وحكمه، من المُتَقلِّب والمُتَغيِّر: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[آل عمران: ١٤٠].

٤ ـ وإنه ليست نتائج المعركة المريرة، قاصرة على التمييز بين الفريقين المذكورين، بل منها أيضًا أن يختار الله من المجاهدين الذين سقطوا في المعركة، شهداء على الحق والرسالة والبلاغ؛ لأنهم لُقِّنوا الدعوة، وتَمَثَّلوها، وجاهدوا فيها بأموالهم وأنفسهم حتى ماتوا فيها، ولا مركز ينتظره الشهداء أعظم من هذا عند ربهم: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٥ ـ وليس دخول الجنة بالأماني والأحلام المحلقة، ما لم يُمهَّد له بالجهاد في واقع الحياة العملية، وذلك بالصبر الدائب المستمر في كل الميادين، في الطاعة لأمر الله، وفي مجانبة معصية الله، ومعاداة أعداء الله، وفي معاناة المكابرين والمضللين، وفي مصاولة الباطل، ومقاومة داعي الهوى ونزوات النفس: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران].

٦ ـ ضرب الله تعالى مثلًا للمؤمنين، بالذين سبقوهم بإيمان وإحسان، في موكب الدعوة إلى الله، ومواكب الرسل الدعاة، لقد كانوا حشودًا في درب الإيمان الطويل، درب الجهاد والنضال في سبيل الله، وأُصيبوا في أموالهم وذواتِ أنفسهم، وتقَرَّحَت جُسُومُهم، وشُجَّت رؤوسُهم، وقُطِعَت أطرافهم، ونُكِّل بهم تنكيلًا، لكنهم لم يَستَئِسُوا، ولم ينهاروا، وآمنوا أن ذلك من ثمن الدعوة إلى الحق، وبسبب أخطاء اقترفوها، فاستغفروا منها الله، واستغفروا لإسرافهم في أمرهم، ورَغِبُوا إليه في أن يُثبِّتَهم في المعارك،

وينصرهم على أعدائهم، فاستجاب لهم، وكتب لهم النصر في الدنيا، والعِزَّة في الآخرة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران].

فكم في هذه الآي من لطف من رب العالمين، بالصحابة الذين ألـمَّت بهم هذه الكبوة العارضة! وكم فيها من عظات بالغة، ودروس، سَمَت على حطام النصر، وغنائم الفوز!

لو أن المرء وازن بينها وبين الأسلاب يوم بدر، لوجد فيها رُجْحَانًا ظاهرًا، وخيرًا وبركات، وعناية ورعاية، حانيتين أثيرتين من رب العالمين، ورُبَّ ضارةٍ نافعة». [صور وعبر لفيض الله ١٣٧-١٣٩].

٤٠ ـ دروس وأحكام من حمراء الأسد:

يقول د/ أبو فارس: «ويستفاد من غزوة حمراء الأسد دروس وأحكام منها:

(١) **يقظة النبي ﷺ الدائمة، وحذره المستمر**: فقد كان رسول الله ﷺ يرصد تحركات قريش بالسؤال عن أخبارهم وعن تحركاتهم، واتخاذ ما يلزم من قرارات على ضوء ما لديه من أخبار، وفي هذه الغزوة استطاع أن يعرف ما تريده قريش بعد غزوة أحد، فاتخذ قراره بسرعة.

(٢) **قوة الروح المعنوية التي كان يتمتع بها القائد، وهو رسول الله ﷺ**، وكذلك الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها الصحابة في هذه الغزوة، إذ لم يتخلف واحد عن هذه الغزوة رغم ما بهم من جراحات وآلام.

(٣) لقد انقدح في نفسي ـ والله أعلم ـ أن هذه الاستجابة الكلية والفورية كانت تطبيقًا لدرس الطاعة الذي نسوه، أو لم يكترثوا به في أحد، فكان ما كان من العقوبة لهم بحرمانهم من نعمة النصر على عدوهم.

(٤) نحسب ـ والله أعلم ـ أن النبي ﷺ أراد بهذا الخروج أن يحقق عدة أهداف:

الهدف الأول: أن يقوي الروح المعنوية عند المسلمين وإن كانت قوية، وأن يجرئهم على قتال المشركين.

الهدف الثاني: أن يرد للمسلمين سمعتهم عند الآخرين، لا سيما القبائل في الجزيرة العربية، إذ ستسمع القبائل بخروج الرسول ﷺ وأصحابه، وعدم جرأة قريش على مجابهته وقتاله.

الهدف الثالث: تأديب المنافقين واليهود في المدينة، وإرهابهم بإرهاب المشركين؛ لأن العدو الداخلي إذا شعر بقوة المسلمين أُرهب وسكت، وتوقف عن الفتنة، ولم يتجرأ على التفكير في أذى المسلمين، وإذا شعر بضعف الجبهة الداخلية، وعدم قدرتها على مجابهة العدو الخارجي طغى وبغى، وعاث في الأرض الفساد.

(٥) الحزم مع رأس المنافقين وعدم السماح له بمشاركة المسلمين شرف الجهاد في سبيل الله؛ لأنه عدو كافر بقلبه ضرره أكثر من نفعه، بل كله فساد وإفساد.

(٦) اتخاذ القرار السريع الحازم الحاسم في مواجهة قريش وخطرها الذي يهدد المسلمين، ومواجهة القوة بالقوة؛ ذلك لأن القوة أضمن طريق لإحقاق الحق، وهي الحارس الأمين القوي الذي يحافظ على بقاء الحق لأهله وهكذا ينبغي أن يعلم المسلمون شعوبًا وحكومات ويطبقوا ذلك.

(٧) الهمة العالية التي تحمل صاحبها على تناسي الآلام، والهدف الأسمى الذي يجعل صاحبه يتجشم الصعاب والمخاطر، فلا يتهيب صعود الجبال حتى لا يعيش بين الحفر.

هذا ما نستفيده من موقف الرجلين الجريحين من بني عبد الأشهل.

(٨) تصرف أبي سفيان قبل انسحابه من الروحاء إلى مكة بإرسال رسالة شفوية إلى رسول الله ﷺ، وهو في حمراء الأسد، تصرف عسكري ناجح؛ يقوم على مبدأ الحرب النفسية، وشنها ضد العدو في وقت الحرب والسلم، وهذه الحرب لها أثرها الذي لا يخفى على كيس فطن أبدًا.

(٩) إن موقف النبي ﷺ من هذه الحرب النفسية كان موقفًا في غاية التوفيق والسداد والصواب، إذ لم يؤثر فيه هذا التهديد، ولم يعبأ بهذه الحرب النفسية، بل ثبت كالطود الأشم يتحدى أبا سفيان وكل المشركين، فلم ينسحب من حمراء الأسد، واستمر فيها ثلاثة أيام.

لقد فشل أبو سفيان في شن الحرب النفسية ضد المسلمين، ولم تؤت أكلها، بل كانت نتيجة هذه الحرب عكسية بالنسبة لقريش، إذ أدرك الناس في الداخل والخارج، وفي مقدمتهم المسلمون أن هذا التهديد كان جعجعة فارغة، وهذيانًا لم يصغ الناس إليه، وفي المقابل فقد أدرك الناس صدق المسلمين في خروجهم وفي تحديهم، وفي الوقوف عند كلمتهم، إنهم أصحاب مروءة وشرف ورجولة، شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء.

(١٠) في قول النبي ﷺ حين سمع تهديد أبي سفيان: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ درس لكل مسلم في كل زمان ومكان، وهو وجوب الاعتماد على الله وطلب النصر منه سبحانه بعد الأخذ بالأسباب المادية، إذ لا بد أن يحسب لهذا الجانب حسابًا.

(١١) كان في أمر النبي ﷺ بإشعال النيران في الليل درس؛ وهو إرهاب العدو، إذ كان المسلمون يشعلون في كل ليلة خمسمائة نار فتحيل الليل إلى نهار، فيكشف كل تحرك للعدو من بعيد، وفي نفس الوقت أن هذه النيران الكثيرة تدل على كثرة الجيش الإسلامي واستعداده ويقظته واستمرار أهبته للقتال، فلا يجرؤ أحد على التصدي له.

(١٢) أن قتل الرسول ﷺ لأبي عزة الشاعر كان في غاية الحكمة والحزم، فهو أمر مقبول ومعقول، فهو يستحق هذه العقوبة؛ لأنه نال عفو المسلمين شريطة ألا يساعد عليهم عدوًا، وإذا به يخون العهد وينطلق ليؤلب الناس على قتال من عفا عنه.

وفي القانون الدولي يحظر على الأسير أن يعود للقتال مرة ثانية، فإذا عاد للقتال مرة ثانية وأسر فإنه يقتل.
إن قتل الرسول ﷺ للأسير الخائن قد سبق هذا القانون الدولي بقرون عديدة».
[غزوة أُحد لأبي فارس ١٤٧-١٥١].

٤١ ـ صورة من صور النفاق:

يقول د/ الحميدي: «وفيما فعله ابن سلول عندما جلس الرسول ﷺ على المنبر صورة من صور النفاق التي كان عبد الله بن أبي وجماعته من المنافقين يجيدونها ويتظاهرون بها.

وقد كانوا جميعًا يؤدون تكاليف الإسلام الظاهرة كالصلاة، ويحرصون على أدائها في المسجد أحيانًا ليراهم المؤمنون، ولقد كان هذا الأمر محتملًا منهم؛ لأن تلك الأمور واجبات ظاهرة لابد أن يؤدوها وإلا اتهموا في دينهم، أما أن يتحولوا من مرحلة الالتزام الشخصي إلى مرحلة الدعوة إلى الإسلام فهذا ما أنكره بشدة على ابن أبي جماعته من الأنصار وقد حصل منه ما حصل يوم أحد.

ولقد كان موقفًا مشكورًا من أبي أيوب خالد بن زيد وعبادة بن الصامت الأنصاريين رضي الله عنهما ومَنْ كان معهما من الأنصار حيث أسكتوا ابن أبي وجروه وأخرجوه من المسجد بقوة، وأبانوا له بأنه ليس بأهل أن يصل إلى مرتبة الدعاة وقد جرى منه ما جرى.

وهذا يدل على براءة الأنصار رضي الله عنهم من الولاء لأعداء الإسلام وإن كانوا من قبائلهم، وهذا من كمال إيمانهم ورسوخ يقينهم رضي الله عنهم.

ونجد في نهاية الخبر مثلًا من حقد المنافقين على الإسلام ومشاعره العظيمة حيث يقول ابن أبي: «**أخرجني محمد من مِرْبَدِ سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ**»، ولم يقل من المسجد لأنه لا يعترف بالمسجد ويتمنى زواله ليعود مكانه مربدًا كما كان». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨].

٤٢ ـ الاغتباط بيوم أحد أضعاف الاغتباط بيوم بدر:

تحت عنوان «**مواطن العبرة من غزوة أحد**» يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في شأن غزوة أحد: «ستون آية من سورة آل عمران، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١-١٨٠]، نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلًا لوقائعها وتفسيرًا لأسبابها ونتائجها.

وغزوة أحد ثاني الغزوتين المشهورتين في صدر الجهاد الإسلامي، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى ـ غزوة بدر ـ تغمر قلوبهم عند ذكراها موجة من البهجة والغبطة؛ لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذلهم واستضعافهم، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم، نصر القلة على الكثرة، ونصر الضعف على القوة بل نصر قوة الحق والإيمان، على قوة الجبروت والطغيان.

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى ـ غزوة أحد ـ يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزنًا وأسفًا لما أصابهم فيها من قرح، ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء.

ولو فقه الناس، لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر، ذلك أن يوم بدر كان لونًا واحدًا من النصر، وكانت منه عبرة واحدة من معجزة النصر، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطوارًا ثلاثة، وكان لكل طور منها سره وعبرته.

لقد كان أوله نصرًا ظاهرًا كيوم بدر، بل كان النصر فيه أظهر وأبهر، كان المشركون يوم بدر ألفًا وكان المسلمون يومئذ ثلاثمائة ونيفًا، أي أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم.

أما في يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف، وكان المسلمون عند خروجهم ألفًا، ولكن نقص عددهم في الطريق، حيث تخلف عنهم عبد الله بن أُبي في ثلاثمائة من المنافقين، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضًا ولكن الله ثبتهما، فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط، أي أقل من الربع، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحًا وتقتيلًا.

هذه هي الجولة الأولى أشارت الآية العزيزة إليها: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي تحشونهم حش الأعشاب، وتحصدونهم حصد الهشيم، وتستأصلونهم بإذن الله وتيسيره، فلننظر الآن كيف تحول الموقف؟

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم ـ صلوات الله عليه ـ قد بوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وخصص لكل طائفة منهم مجالًا لا تتخطاه، جعل فريقًا من الرماة فوق الجبل، يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه، وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا في مراكزهم مهما تكن النتيجة قائلًا لهم: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**». [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، وفي المغازي (٤٠٤٣)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٢)، ومسند أحمد ٣٠/ ٥٥٤-٥٥٥ رقم ١٨٥٩٣].

ولكن الذي حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم، واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب، ظنت فرقة الرماة أنه قد وضعت الحرب أوزارها وأنه لن يكون للمشركين رجعة فتحولت عن مراكزها واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم.

وهكذا تركت في ظهر الجيش ثغرة فطن لها فرسان المشركين، فتسللوا منها، وتتابع القوم وراءهم، هنالك أُخذ المسلمون على غِرة من خلفهم، فأصابهم الاضطراب والخور، وفر أكثرهم مصعدين في الوادي، أي منحدرين فيه لا يلوون على شيء، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا

حوله، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات حتى نادى مناد أن محمدًا كان من بين القتلى فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين: غم على ما فاتهم من النصر، بعد إحرازه، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل، وغم على تركهم الرسول ﷺ خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

وتلك هي الجولة الثانية التي يقول الله تعالى في شأنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾، ويقول: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذي يقترن في نفوسهم بذكرى هذه الموقعة؛ لأنها في نظرهم قد انتهت بكارثة، هؤلاء الناس يُسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرها وهي جولة لا يُقدِّرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل، في صهر النفوس، وشحذ العزائم، ورفع الروح المعنوية، في الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان، ولعمري لقد كان للوحي القرآني أكبر نصيب في إعلاء هذه الروح.

نعم لقد حزن المسلمون في أول الأمر لما أصابهم، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارًا تحرق القلوب، ولكنها كانت نورًا يضيء الطريق، لقد كانت نارًا وحسرات في قلوب المنافقين وضعاف النفوس، أولئك الذين ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فجعلوا: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾، ولكنها عادت بردًا وسلامًا في قلوب المؤمنين، إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ وما إن استيقظوا هانئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم، ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم، ويتأهبون في الوقت نفسه بالكر على أعدائهم، لئن كان قد جُرح منهم كثير لقد جَرحوا هم أيضًا كثيرًا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون، لقد قتلوا في الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم، وأنه كان بسبب معصية بعضهم لأمر القائد، وتطلُّع بعضهم إلى عرض الدنيا، ولكن ها هم أولاء يضمدون الآن جراحهم، ويستعدون في عزم وحزم لملاقاة عدوهم، لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم، أَنْ وَلَّى الأعداء راجعين إلى ديارهم، وتلك هي الجولة الثالثة التي أشارت إليها الآيات

الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

[في رحاب التفسير لكشك ١/ ٦٧١، وخطب مختارة ٥٢٢، ولم يذكرا مصدر كلام د/ دراز].

٤٣ ـ من أين يأتينا البلاء؟ ولماذا؟:

يقول أ/ النجيري: «رأينا من خلال غزوة أُحد أن البلاء الإلهي قد نزل وعمت محنة شديدة بالمسلمين لأسباب محددة صدرت من الجماعة المسلمة أو من بعض أفرادها، ولم يمنع نزول البلاء أن المسلمين كانوا في موقف جهادي وأنهم خرجوا بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وإن اختلفت نيات البعض.

كما لم يمنع نزول البلاء أن فيهم رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

كما لم يمنع المحنة أن تنزل بأطهر الناس قلوبًا وأرقها أحلامًا وأكثرها تقى وورعًا من أصحاب النبي ﷺ بل إن البلاء حين نزل لم يسلم منه النبي ﷺ نفسه، فجرح وأدمي وجهه الشريف.

وهكذا نجد الموقف كالآتي: قوم مؤمنون صالحون، خرجوا للجهاد في سبيل الله ﷻ، وفيهم رسول الله ﷺ استطاعوا أن يحرزوا نصرًا أول المعركة، ولكن ببعض العناصر المريضة والمنافقة داخل الصف، وببعض الذنوب والمخالفات والتشاحن، بسبب حب الدنيا والحرص عليها انقلبت إلى محنة وابتلاء شديد عمت نتيجته القائد الرسول ﷺ والجيش بكل فئاته والنتيجة النهائية للمعركة.

فماذا لو قارنا بين هذا الموقف وما يعيشه المسلمون الآن؟

ويتوجب علينا أن نفعل ذلك ـ فيما نرى ـ لأن كثيرًا من المسلمين ما زالوا يتطلعون إلى الإسلام كمفتاح سحري، وكلمة ينطقونها ـ مجرد كلمة ـ فتفتح لهم الدنيا ليسودوها ولينالهم الوعد الإلهي بالتمكين في الأرض، وهذا الخاطر الذي يتحول إلى عقيدة عند البعض، ينطوي على خدعة كبرى، وليس أدل على ذلك من أننا نرى النبي ﷺ بشخصه وأصحابه الأطهار معه ينالهم مثل هذا البلاء والانكسار بسبب ذنوب البعض ومخالفتهم وانصراف نيتهم إلى الدنيا دون الآخرة.

فكيف بنا وأين نحن من هذه التربية التي كان عليها هؤلاء النفر من أصحاب محمد ﷺ، إن خروجهم للجهاد في سبيل الله تعالى هو شيء نسيناه تمامًا اليوم ومات بيننا، وتعلقت القلوب بالدنيا وأخلدت إلى الأرض، والنبي ﷺ يبين تلك الحال التي نحن عليها بقوله: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**».

[صحيح: أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٦٢)، والطبراني في الكبير رقم ١٣٥٨٣، والبيهقي في السنن ٥/ ٣١٦، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٣-٣١٤ من طرق عن ابن عمر ﷺ بلفظ: «أتى علينا زمان...» الحديث].

وفي حديث آخر يوضح النبي ﷺ ما ستكون عليه أمته من بعده بين غيرها من الأمم وسبب ذلك، وهو ما نحن فيه، يقول ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَل أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**». [أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أحمد ٣٧/ ٨٢ رقم ٢٢٣٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. ينظر: صحيح الجامع الصغير رقم ٨١٨٣].

إن ترك الجهاد سبب أكيد للمذلة ونزول البلاء من السماء، وحب الدنيا وزخرفها وإيثارها على الآخرة سبب آخر لخذلان الله ﷻ الذي لا يقبل شريكًا في قلب عبده المؤمن، ولكن حال الأمة الراهنة المستوجبة لنزول البلاء أكبر من ذلك، فالمجتمعات في بلاد المسلمين حال وجهها عن طريقة الحياة الإسلامية، وكادت الشعائر الإسلامية تنطمس وتزول، وحتى على المستوى الرسمي لا ترى أنظمة الإسلام السياسية والاقتصادية، فلا حكم بشريعة الإسلام وقوانينه الإلهية، إضافة إلى نظام اقتصادي ربوي، وأكثر من ذلك انتشار كبير للفواحش وارتكاب معلن للكبائر وتضييع للفرائض وأصول الدين وحدوده، وتنازع وفرقة وتدابر... وبعد كل ذلك نسأل:

من أين يأتينا البلاء؟ ولماذا؟». [البلاء الإلهي للنجيري ١٨٦-١٩٠].

٤٤ ـ غزوة أحد جولة من المفاهيم:

يقول م/ أبو راس: «نعم لقد كان المصاب عظيمًا، ولكنَّ المسلمين ـ كما قلنا ـ كانوا منتصرين على الرغم من هذا المصاب العظيم، فالذي حدث ليس أكثر من خلخلة في الصفوف، حسبته قريش انتصارًا، طارت به مخافة أن يُسلب منها لو استمرت الجولة، وليس أدل على ذلك من رفض المشركين العودة للقتال حيث عسكر رسول الله ﷺ وصحابته بـ «حمراء الأسد» وظلوا يوقدون النار في معسكرهم طيلة ثلاث ليال في انتظار قريش، التي حاولت أن تشن حربًا باردة على المسلمين المنتظرين، الذين ردوا على الشائعة بإيمانهم الراسخ، ويقينهم القوي الشامخ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وأنزل الحق فيهم وفي موقفهم الشجاع آيات تُتلى إلى يوم القيامة، يعلن فيها الحق ﷻ أن المسلمين لم يمسسهم سوء: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

نعم لقد كان المسلمون هم المنتصرين على الرغم مما حدث، وكيف لا؟ والحق ﷻ يقر ويعلن أنهم ـ أي الذين حضروا المعركة وكل من يأتي بعدهم من المسلمين ـ هم الأعلون: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ

﴿ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾[آل عمران]، وهؤلاء الذين سطروا بدمائهم أرفع سجلات الرجولة والفداء، ليسوا مؤمنين فحسب ولكنهم خير القرون، ويقودهم خير الناس، سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

ولكن الحق ﷻ مع هذا كله عاتب المسلمين عتابًا رقيقًا، وضع به أيديهم على أسباب ما حدث من خلخلة في الصف؛ ليضع الأجيال المسلمة كلها جيلًا بعد جيل على أسباب الخور والضعف و«الهزيمة».

فقال الحق ﷻ معاتبًا المسلمين: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢﴾[آل عمران].

ثم حتى لا يكونوا أسرى ما حدث، يشد الحق ﷻ على أيديهم ويرفع من معنوياتهم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران].

ثم تلطف الله ﷻ مع عباده المؤمنين، وطيب من خواطرهم وذكَّرهم بأن طريق الحق بحاجة إلى المزيد من التضحيات: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران].

ويخبرهم بأن سلعة الله الجنة سلعة غالية الثمن، وأن الأماني وحدها لا تقود إلى الجنة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾[آل عمران].

ثم عاتب الحق ﷻ أولئك الذين سُقط في أيديهم عندما وصل إلى مسامعهم بأن رسول الله ﷺ قد قُتل، فالرسول ﷺ مذ صدع بما أمره الله ﷻ به لم يَدَّعِ لنفسه ربوبية ولا ألوهية، ولكنه ﷺ أعلنها عالية مدوية واضحة، بأنه عبدُ الله ورسوله، جاء برسالة ربه ليُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، جاء ليقود الناس إلى الحق والعدل، جاء ليعرفهم على ربهم الحق الذي أضلتهم عنه شياطين الجن والإنس.

فكيف يعقل أن يهن رجال تربوا على مثل هذه المعاني، وأن يسقط في أيديهم ويقعدوا عن الجهاد والفداء، فهم لا يجاهدون من أجل شخص محمد ﷺ، ولكن من أجل الله رب محمد ﷺ حتى وهم يسقطون واحدًا تلو الآخر تحت أقدام محمد ﷺ مخافة أن يصيبه العدو، إنهم أصحاب عقائد، أتباع مبادئ، وليسوا عبيد أشخاص مهما كانوا، ولا أتباع رجال مهما عظموا! فإذا ما مات القائد المرشد الذي أنار بإذن الله دياجير الظلام، فإن الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت الذي أرسل محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق لا بد أن تظل باقية ما بقي ليل ونهار، حتى يرث الحق ﷻ الأرض وما عليها؛ لذا جاء اللوم والعتاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[آل عمران].

ثم بعد هذه الجولة من المفاهيم يضع الحق ﷻ يد الجماعة المؤمنة على الجرح، فما الذي حدث إلا بسبب المسلمين أنفسهم فما أخلفهم الله موعدًا ولا ظلمهم حقًّا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾[آل عمران].

ألا كم هو جدير بمسلمي هذه الأيام أن يقفوا طويلًا طويلًا أمام هذه الدروس العظيمة علهم ـ بعون الله ـ ينهضون من هذه الوهدة التي وقعوا فيها، علهم ينهضون بواجبهم تجاه ربهم، تجاه رسولهم ﷺ، تجاه أنفسهم، تجاه العالم والعصر الذي يعيشون فيه، والذي أخذ يغوص في أوحال الخطيئة والرذيلة، وهو يتخبط في الظلام الدامس، جدير بالمسلمين أن ينثني كلٌّ على مكنون نفسه، وهو يردد إذ يرى أمته تتردى في الهزائم المتوالية المتتالية: أنى هذا؟ جدير به أن ينظر إلى نفسه ليرى أين هو من الله ﷻ؟! أفي المطيعين الممتثلين لأوامر الحق ﷻ؟! أم في العاصين، المنحرفين عن طريق الحق ﷻ؟!

كم هو جدير بالأمة الإسلامية أن تنظر إلى نفسها نظرة صادقة؛ لتعلم أن غياب شمسها واضمحلال قوتها لم يكن إلا بعد أن غرقت هذه الأمة في المعصية ـ لا من باب الاجتهاد ـ ولكن من باب الإصرار على المعصية!

كم هو جدير بالأمة الإسلامية أن تعود إلى الملك الحق الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

كم هو جدير بالأمة الإسلامية وقد عرفت أن الركون إلى ظلم الشرق وبغي الغرب، لم يزدهم إلا ذلًّا على ذلهم، وغيابًا على غيابهم، وضعفًا على ضعفهم.

كم هو جدير بهم أن يرددوا ترديدة الواثق بالله ﷻ لا ترديدة العاجز الخائر: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾، فالشعور بمعية الله ﷻ هو النصر الحقيقي، وإن طالت ظُلمة الهزيمة، وكثر المتكالبون الحاقدون، ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ هو الناصر القاهر، هو المقدم وهو المؤخر، هو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، هو القادر على انتشالنا من وهدة ما نحن فيه، بشرط أن ننصره ﷻ، أن ينثني كل فرد على نفسه يُطيعها لأوامر الله ﷻ صغيرها وكبيرها، فنكون كما أراد لنا رسولنا ﷺ أن نكون وهو يضرب لنا المثل بنفسه «**كان قرآنا يمشي على الأرض**».

عندها تكون الأشياء كل الأشياء بحجمها الطبيعي، فلا تأخذنا الدنيا كل مأخذ، فما نحن في هذه الدنيا إلا كعابر سبيل، ولا يخيفنا الموت المحتوم فيقعدنا عن القيام بواجبنا تجاه ديننا ورسالتنا، فالموت حق فلا نامت أعين الجبناء، ويا حبذا موت الشهداء.

ولا يخيفنا فوات الرزق عن قول كلمة الحق، فإن الرزق من الأمور التي قَدَّرها الله لعبده مذ كان في بطن أمه، فلن يزيده السكوت، ولن تنقصه منافحة الباطل وأهل الباطل!

ألا كم هو جدير بنا أن نحني أضلاعنا على قرآن ربنا، علنا نتحسس الطريق إلى العزة والكرامة في الدنيا والآخرة؛ لينقلنا ربنا من نصر إلى نصر وما ذلك على الله بعزيز.

وكم هو جدير بالذين يتصدرون لدعوة الحق ﷻ أن يربطوا من استجابوا إليهم أن يربطوهم بالله ﷻ وبالإسلام وبالقرآن، لا أن يكون الربط بأشخاصهم الفانية فذلك أولى بالقدرة على التصحيح إن وقع الخطأ، وبالاستمرار على النهج الصحيح إن وهنت بعض العزائم وفترت.

أما تربية البيادق والإمعات، تربية العبيد والأتباع على غير بصيرة فإنها خسارة في الدنيا، وخسارة في الآخرة، خسارة في الدنيا؛ إذ متى كان للعبيد دَوْرٌ في بناء الأمم وتشييد صرح الحضارات.

وخسارة في الآخرة للتابع والمتبوع، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١١-٢١٥].

٤٥ ـ مناط النصر:

يقول أ/ فتح الباب: «أثبتت أحداث الجزيرة العربية بعد أحد وغلبة الإسلام في نهاية الصراع أن مناط النصر قائد يملك هذه الطاقات الروحية العميقة، ويستطيع أن يُشعها على أنصاره، ويهزم بها أعداءه، قائد يمثل القيم العليا في أسمى غاياتها: قيمة الإيمان، وقيمة الصمود، وقيمة التضحية، قائد يملك الثقة بالله والقدرة على بث الثقة في نفوس الجماعة التي ينتمي إليها، وعلى تفجيرها في أرواحهم قوة لا تعدلها قوة، ونورًا يضيء السبيل إلى الهدف المنشود.

كذلك كان القائد الأعظم للأمة الإسلامية ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين في قوله وفعله في ساعات الأمن، وفي أوقات المحن، في حله وترحاله، قوة وشجاعة لا تقف في طريقها الجبال، ولا يرهبها شبح الموت في ساحة النضال، قوة بدت منذ أُمِرَ أن يصدع بالدعوة في مكة، فلما ساومه عليها قومه قال: «**والله لو جعلوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه**»، فلا وعد يُجدي، ولا وعيد يفيد، وليس غير أداء الرسالة هدف، ولا دون الكفاح وسيلة، ولقد اختاره الله للنهوض لمسؤوليات الدعوة، ووعده بالنصر، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف]».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٨٦].

٤٦ ـ العبرة فيما أصاب المسلمين:

يقول الشيخ أبو زهرة: «ولكن مع ذلك دروس، ففي أُحد عبر وأغلاط، هي التي جعلت المسلمين يمسهم قرح، كما مس المشركين قرح أولًا، وقرحهم أشد لأنه صحبته هزيمة.

وأن الجرح الذي أصاب المسلمين له أسباب:

أولها: أن جيش المسلمين كان فيه من يطلب الغنيمة؛ لأنه حسب أن النصر مفروغ منه بالقياس على ما كان في بدر، وقد ظهرت نيات هؤلاء قبل المعركة، إذ همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما، وظهرت في أثناء المعركة، فقال ﷻ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، والذين يريدون الدنيا سارعوا إلى الغنائم، وعصوا أمر الرسول ﷺ.

وظهر الذين يريدون الدنيا بعد المعركة، فقد أهمتهم أنفسهم، وندموا على الخروج؛ لأنهم لم يصيبوا مالًا وأصابتهم جراح، ولم يعرفوا أن شأن القتال اتباع مناهجه، فإن خرجوا عنها وخالفوا أمر القائد، ينالهم الثبور، وأنهم إن أطاعوا، وسلكوا المنهج المستقيم نصرهم الله تعالى بتوفيقه.

ولقد كان هؤلاء يثيرون التردد في الجهاد في قلوب أهل الإيمان، وقال الله ﷻ فيهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وثانيها: أن بعض الجيش الإسلامي ـ بتأثير الذين يريدون الدنيا ـ قد شُغلوا بالغنائم، ولم يطاردوا المشركين بعد أن اضطربت صفوفهم بضربات المؤمنين الصادقين أولي البأس من أصحاب محمد ﷺ، ولم يتبعوا المشركين حتى يثخنوهم، ويعجزوهم عن أن يحيطوا بهم، ويضربوا فيهم.

وثالثها: عصيان القائد، وذلك من الذين يريدون الدنيا، وقد عارضهم الذين يريدون الآخرة، ولكنَّ الأولين كشفوا ظهر المسلمين.

ولقد كانت نتيجة هذه الجراح عبرة ولم تكن هزيمة، وهي أن الله تعالى مَحَّصَ الذين آمنوا بالله وطلبوا الآخرة من الذين يريدون الدنيا، ولا يفكرون فيما عند الله تعالى في الآخرة.

فإنه في الوقت الذي كان يجري هؤلاء وراء الغنائم ـ التي كانت وبالًا ـ كان المخلصون الذين يريدون الآخرة قد أحاطوا بالرسول ﷺ يتلقون عنه ضربات السيوف وينضحون النبل، ويرمون، ويأتمرون بأمر القائد الأعظم بأمر الرسول ﷺ، وقد باعوا أنفسهم لله تعالى يقاتلون، فيَقْتلون ويُقتلون حتى شقوا الطريق، وعلوا إلى الهضبة وأخذوا يكيلون الضربات، حتى أيئسوهم من نصر، وأن يُلحقوا بالمسلمين هزيمة، ولقد قال الله ﷻ وقد تبين المجاهدون الذين أشرنا إليهم، والذين استردوا الموقف، بعد أن خرج بعمل الذين يريدون الحياة الدنيا: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

وقد تبين المجاهدون الصابرون، وكان منهم مَنْ قضى نحبه، ومنهم مَنْ ينتظر، وما بدلوا تبديلًا.

وإن غزوة أُحد مهما تكن نتيجتها قرر النبي ﷺ أنها جرح أصيب به المسلمون من الشرك، فقد قال: «**لَنْ يَنَالُوا مِنَّا مِثْلَ هَذَا اليَوْمِ حَتَّى نَسْتَلِمَ الرُّكْنَ** ـ وفي رواية ـ **حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْنَا**».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٢٥-٧٢٦].

٤٧ ـ أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ:

يقول أ/ الصوياني: «وتمر الأيام ويتبقى لأُحدٍ وشهدائها ذكريات وعطر يفوح في أجواء المدينة وأحاديث أهلها.

وتمر الأيام فيولد لأحد الأنصار غلام فيحتار في تسميته، فتتجه به الحيرة إلى أحب الناس إليه، إلى رسول الله ﷺ، فيبحر به ﷺ إلى أبهج الذكريات وأقساها، يبحر به إلى أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: وُلِدَ لِرَجُلٍ مِنَّا غُلَامٌ فَقَالُوا: مَا نُسَمِّيهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَمُّوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيَّ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**». [المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢١٦ رقم ٤٨٨٨، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: يعقوب بن كاسب ضعيف، وقال الشيخ الألباني: ضعيف. ضعيف الجامع الصغير (٣٢٨٤)، وقال أ/ الصوياني: سنده حسن. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٢٦٦].

فحمزة رضي الله عنه ما زال عالقًا في الذاكرة، متجذرًا في القلب النبوي الكريم، لكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى الله: عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**». [مسلم في الأدب (٢١٣٢)].

ولما رزق أحد الأنصار بغلام سماه محمدًا، فاحتج الأنصار على هذا الاسم، وبخلوا به عليه إكرامًا لرسول الله ﷺ، فكان جواب رسول الله ﷺ على ما حدث، ما نقله جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، قَالَ: وُلِدَ لِرَجُلٍ مِنَّا غُلَامٌ فَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: لَا نَدَعُكَ تُسَمِّي بِاسْمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَانْطَلَقَ بِابْنِهِ حَامِلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا فَقَالَ لِي قَوْمِي: لَا نَدَعُكَ تُسَمِّي بِاسْمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي، فَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ**». [مسلم في الأدب (٢١٣٣)].

إذًا فاسم محمَّد اسم محبب إلى رسول الله ﷺ، ومحبب إلى الله سبحانه، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وُلِدَ لَهُ غُلَامٌ، فَأَرَادَ أَنْ يُسَمِّيَهُ مُحَمَّدًا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**أَحْسَنَتِ الْأَنْصَارُ سَمُّوا بِاسْمِي، وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي**». [مسلم في الأدب (٢١٣٣)].

فما هي هذه الكنية التي نهاهم ﷺ عن التكني بها.

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أيضًا، يحدِّثنا عن ذلك فَيَقُولُ: وُلِدَ لِرَجُلٍ مِنَّا غُلَامٌ فَسَمَّاهُ الْقَاسِمَ، فَقُلْنَا: لَا نَكْنِيكَ أَبَا الْقَاسِمِ، وَلَا نُنْعِمُكَ عَيْنًا (أي لا نكرمك ولا نقر عينك بذلك)، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**أَسْمِ ابْنَكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ**». [مسلم في الأدب (٢١٣٣)].

وعندما (نَادَى رَجُلٌ رَجُلًا بِالْبَقِيعِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَمْ أَعْنِكَ، إِنَّمَا دَعَوْتُ فُلَانًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**».

[مسلم في الأدب (٢١٣١)]. [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٦١- ٢٦٣].

٤٨ ـ من أخذ مال سعد بن الربيع ﷺ؟:

يقول أ/ الصوياني: «وفي بيت سعد بن الربيع ﷺ الشهيد الكريم، الذي ناصف عبد الرحمن بن عوف ﷺ ماله وأهله، في بيت هذا الربيع الممتد كالبصر حلَّ الجفاف والفقر، لقد ذهب مال سعد بن الربيع ﷺ وثروته مع الريح والجشع، سعد بن الربيع ﷺ لم يترك سوى زوجته وابنتيه وثروته، ولا أدري هل طلق زوجته الثانية أم توفيت؟ لكن الذي أعرفه أن ماله قد ذهب، فمن أخذ مال سعد بن الربيع؟

ها هي أم الفتاتين زوجة سعد بن الربيع ﷺ وبعد مرور أيام وشهور تخرج حزينة على زوجها وبناتها، تتجه نحو النبي ﷺ تسأله حلًّا، تسأل الله فرجًا، فلا سعد ولا بناته يستحقون كل هذه المعاناة، تقف تلك الحزينة أمام الرحمة المهداة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِابْنَتَيْهَا مِنْ سَعْدٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: **يَا رَسُولَ اللهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا، وَلَا تُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ** (أي انه لن يرغب أحد فيهما وهما معدمتان)، قَالَ: «**يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ**»، فَنَزَلَتْ: آيَةُ الْمِيرَاثِ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَمِّهِمَا، فَقَالَ: «**أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ**». [أبو داود في الفرائض (٢٨٩١، ٢٨٩٢)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٢) واللفظ له، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٠)، ومسند أحمد ٢٣/ ١٠٨ رقم ١٤٧٩٨، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: حسن، والمستدرك للحاكم ٤/ ٣٧٠ رقم ٧٩٥٤، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي].

إنها قسمة الله، لا قسمة الجاهلية والعادات والتقاليد، آية تغسل قلب سامعها من الجشع، تغسله بأنهار العطف والرأفة.

تجعله في مكان المفجوع بنفسه، تجعله يشعر بمرارة اليتم، بليل اليتم يخيم على أبنائه، فإذا لم يكن صاحب قلب رقيق ومرهف، فالآية التي بعدها تصدع قلبه المتحجر، وتملأ بطنه الجشع بالجمر والنار، وتقذف به في الجحيم والسعير الذي لا ينطفئ، أما الآية الثالثة فهي رحمة من الله الرحيم بالأولاد أكثر من رحمة الآباء بأولادهم، والأبناء بآبائهم، إن الله يوصي الآباء بأبنائهم، والموصي أرحم من الموصى.

وقد جعل الله نصيب الذكر أكثر من نصيب الأنثى في الميراث مرتين؛ لأن عليه مسؤوليات تجاه الأنثى عديدة، فالرجل يجب عليه الإنفاق على أمه وأخته وزوجته وابنته، وهو الذي يدفع المهر لزوجته، بل يجب عليه أن يكسو زوجته، وأن يقدم لها الطعام جاهزًا للأكل.

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: مَا حَقُّ المَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ؟ قَالَ ﷺ: «**أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ، وَأَنْ يَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى، وَلَا يَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا يُقَبِّحْ، وَلَا يَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**».

[ابن ماجه في النكاح (١٨٥٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

إنها فريضة من الله، وهو الذي خلق هذا الإنسان المعجزة، وهو أعلم به وأحكم وأدرى بما يجعل حياته سعيدة مشرقةً دائمًا، وقد بيَّن ﷺ أن الفتاتين لهما حكم ما فوق الاثنتين، عندما خاطب شقيق سعد بن الربيع.

أخبرنا بذلك جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي تراكمت عليه المسؤوليات، وربما كانت هي سبب مرضه الآن.

إنه يعاني من وعكةٍ ألزمته الفراش بين أخواته يمرضنه ويخفن أن يغادرهن كوالدهن رضي الله عنه، لقد اشتد به المرض فلم يعد يعقل شيئًا، وانتقل خبر مرضه إلى رسول الله ﷺ، فاتجه هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى حي بني سلمة لزيارته، يقول جابر رضي الله عنه: مَرِضْتُ فَجَاءَنِي رَسُولُ الله ﷺ يَعُودُنِي، وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا مَاشِيَانِ [فِي بَنِي سَلِمَةَ]، فَأَتَانِي وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ [فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِمَاءٍ]، فَتَوَضَّأَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ صَبَّ [رَشَّ، نَضَحَ] وَضُوءَهُ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ فَقُلْتُ: أَيْ رَسُولَ الله، كَيْفَ أَقْضِي [مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ] فِي مَالِي؟ ـ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ ـ قَالَ: فَمَا أَجَابَنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ: «آيَةُ المِيرَاثِ [﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ [النساء:١١]، [**يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا لِي أَخَوَاتٌ** [لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةٌ، فَكَيْفَ المِيرَاثُ؟]، **فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ**]. [البخاري في الاعتصام بالكتاب (٧٣٠٩)، وفي تفسير القرآن (٤٥٧٧)، وفي الفرائض (٦٧٤٣)، وفي المرضى (٥٦٧٦)].

وهي الآية التي بعد الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [النساء].

فهو أعلم بخلقه وأدرى بما يجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة، إنه يكرمهم بآيات الميراث ويحفظ حقوق الأيتام والورثة، وفي ذلك تكريم للكريم سعد بن الربيع رضي الله عنه، وتكريم لعبد الله بن حرام رضي الله عنه.

[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٦٨- ٢٧٠].